

المحبة موضوعها وغاياتها

عند ابن تيمية

لقد تعددت الآيات والأحاديث النبوية التي تتناول محبة الله تعالى ورسوله ﷺ وتجلت هذه المحبة واضحة لا مرية فيها فقد نطقت الآيات بمحبة المؤمنين لله تعالى كما في قوله تعالى " وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ " (١) وقوله تعالى " يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ " (٢) وقوله تعالى " وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " (٣) وقوله تعالى " قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ " (٤) وغيرها من الآيات الدالة على محبة الرب ، " وكذلك الحض علي الأعمال التي يحبها الله من الولجبات والمستحبات " (٥) وقد جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن يكره أن يرجع إلي الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار " (٦) ومحبة المؤمنين لرسوله ﷺ إنما وجبت لمحبة الله ، كما ورد في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده وللناس أجمعين) (٧) وغيره من الأحاديث التي تحض علي

(١) سورة البقرة (١٦٥)

(٢) سورة المائدة (٥٤)

(٣) سورة البقرة (١٩٥)

(٤) سورة آل عمران (٣١)

(٥) ابن تيمية : الفتاوى العراقية ، ص ٤٩ ، ط ١ ، ١٩٨٧م تحقيق / جمال سلامة - إشراف د/ محمد عويضة ، مكتبة المنار ، الأردن .

(٦) البخاري في الإيمان (١٦) ومسلم في الإيمان (٤٢ / ٦٧) وكلاهما عن انس وصحيح ابن حبان وسنن الترمذي والنسائي .

(٧) البخاري في الإيمان (١٤ ، ١٥) ومسلم في الإيمان (٤٤ ، ٦٩ ، ٧٠) .

محبة صحابته وقرابته " (١) وأما محبة الله لعبده فقد قال تعالى : " وَأَتَّخِذَ اللَّهُ
إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا " (٢) والمحبة عند ابن تيمية كما هي عند سائر السلف الصالح
هي " نقطة البداية التي يقترن فيها النظر بالعمل " (٣) وهي تعني الاقتداء فهي
ليست نزوعاً نحو الجمال فحسب ولكنها طلب التقرب من المحبوب بتنفيذ
أوامره .

الفرق بين المحبة والخلة

أما الخلة :

" فهي كمال المحبة المستغرقة للحب " (٤) فهي بهذا أخص من مطلق
المحبة وهي من كمالها وتخللها للمحب بحيث يكون المحبوب بها محبوباً
لذاته ، لا لشيء آخر

وأما المحبة :

فيرى ابن تيمية " أنها هي أصل كل عمل ديني " (٥) وهي " الطاعة لله
فيما أمر والانتفاء عما زجر والرضا بما حكم وقدر ، وهذه المحبة حق كما
نطق بها الكتاب والسنة والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل الحديث وجميع
مشايخ الدين وأئمة التصوف أن الله محبوب لذاته محبة حقيقية ، بل هي أكمل
محبة " (٦) وقد كان المحاسبي (ت ٢٤٣ هـ) يراها هي سيف نور القلب

(١) ابن تيمية - التحفة العراقية ، ص ٤٨ ، تحقيق / جمال سلامة ، إشراف د/ محمد عويضة -
مكتبة المنار الأردن .

(٢) سورة النساء (١٢٥)

(٣) د/ مصطفى حلمي (أعمال القلوب) بين الصوفية وعلماء أهل السنة ، ص ١٢٦ ، دار الدعوة
الإسكندرية ١٩٩٣ م .

(٤) ابن تيمية (التحفة العراقية) ص ٥٠ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

ويتجلى هذا في تعريفه للحب الإلهي بقوله " الحب الإلهي في نفس المحب استنارة القلب بالفرح بقربه من حبيبه " (١) وقد دفع هذا بعض الصوفية إلي جعل المحبة أعلي المقامات للعارفين وهي عنده سبب أساسي لغفران الذنوب وتحصيل السعادة في الدار الآخرة . وقد استدل علي ذلك بقول الله تعالى عقب آية المحبة " وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ " (٢) لذا كان الحب هو " أصل الإسلام وجوهره وروح التصوف ومنبعه ، والحب في الإسلام قطب رحاه ومشرق أنواره " (٣) وقد روي عن ابن سارية قال : كان رسول الله ﷺ يدعو بقوله : اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وسمعي وبصري وأهلي ومالي " (٤) وكان الرسول ﷺ طلب خالص الحب وخالص الحب هو أن يحب الله تعالى بكلية .

وهذا قد جعل علماء السلف يرون ضرورة " تزكية النفس وتهذيبها لتستعد لسيرها إلي صحبة الرفيق الأعلى ومعه من تحبه ، فإن المرء مع من أحب " (٥) وبهذا فقد جعلوا المحبة هي غاية الغايات لأنه إذا كانت غاية المتقرب إلي ربه هي الوصول إلي القرب منه والأنس به فإن المحبة الخالصة المستديمة بالطاعة هي الموصلة إلي القرب من الحبيب ويظهر لنا من هذا أن السلف قد جعلوا الغاية من سلوك الطريق التعبدية هو " الوصول إلي مقام المحبة " (٦) وقد اعتنوا في طريق الله بالمضمون من المعارف

(١) اليافعي (عبد الله بن أسد) : نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية وأصحاب المقامات العالية ، ص ١٨٧ تحقيق / إبراهيم عطوة ، ط ١ ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ ، ١٩٦١ م .

(٢) سورة آل عمران (٣١)

(٣) د/ عبد الرحمن عميرة (التصوف الإسلامي منهجاً وسلوكاً) ص ٩١ ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٨٢ م .

(٤) روله النمائي وأبو يعلي الموصلي وابن منيع .

(٥) ابن القيم ، عدة الصابرين ونخبة الشاكرين ، ص ١٥٠ .

(٦) د/ مصطفى حلمي (أعمال القلوب) ص ٩٦ .

والعبادات دون الشكل فتقربوا إلى الله تعالى بالمأمورات والبعد عن المنهيات ليحوزوا الشرف من الإيمان والتقوى والله تعالى قد جعل " وصف أوليائه الإيمان والتقوى فمن كان نصيبه من ذلك أعظم كان أفضل " (١) وقد كان ابن تيمية يرى أن المحبة كمثّل الإيمان تزيد وتقوي كما أنه يزيد وينقص وهذا بسبب المتابعة وإذا كانت أيضاً هي أصل كل عمل ديني فنراه تبعاً لذلك يبين درجات المحبة :

" درجات محبة الله ورسوله ورجاتان "

١- واجبة : وهي التي تقتضي محبة جميع ما أوجبه الله تعالى وهي درجة المقتصدین ، التي توجب أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، (فإن المحبة الواجبة تقتضي فعل الواجبات) (٢)

٢- مستحبة : وهي درجة السابقين ، فإنهم أحبوا ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة ، وهؤلاء هم الذين قربهم الله إليه حيث إن (كمال المحبة المستحبة تستلزم بكمالها فعل المستحبات) (٣) ويقسم ابن تيمية أيضاً المحبة إلى درجات تكاد تكون هذه الدرجات معروفة لدى علماء السلف ومشايخ الصوفية علي زيادة أو نقص أو إدماج ولكنه يرى أن " أعلاه التتيم ، وهو التعبد ، وتيم الله : عبد الله " (٤) وبذلك فقد قسم وصنف الناس في المحبة إلى أصناف أو أقسام أربعة في المحبة .

(١) ابن القيم (مدارج السالكين) ج ٢ ، ص ٣١٨ . دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي .

(٢) ابن تيمية ، قاعدة في المحبة ، ص ١٦٣ مخطوطة / مصورة بمعهد المخطوطات العربية ، رقم ٣٣٠ تصوف .

(٣) للمرجع السابق ص ١٦٣ .

(٤) ابن تيمية (التحفة للعراقية) ص ١٤٥ .

١- قوم تتولد محبتهم من (إحسان الله إليهم وعطفه عليهم) (١) وهؤلاء لهم قدرة ولهم إرادة ومحبة غير مأمور بها لذا فهم يجاهدون في الدنيا في سبيل آخر غير سبيل الله ، وهذه محبة دنيوية مادية لهم يربطها أصحابها بطاعة الله تعالى وعبادته وهي محبة العامة .

٢- قوم لهم إرادة صالحة ومحبة صالحة كاملة ولهم قدرة كاملة فهم سادة المحبين والمحبوبين المجاهدين في سبيل الله كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومحبة هؤلاء واجبة فهي (من أوثق عرى الإيمان وأعظم حسنات المتقين) (٢) والمحبة الخالصة في هؤلاء وأمثالهم هي التي تدفع إلي فعل الواجبات والمستحبات .

٣- القسم الثالث : قوم فيهم إرادة صالحة ومحبة لله قوية تامة لكن قدرتهم ناقصة فهم يأتون بمحوبات الحق من مقدورهم وذلك لأن استطاعتهم في الطاعة أقل من سابقهم ، وقد قال الرسول ﷺ في مثل هؤلاء : (إن بالمدينة لرجالاً ما سرتهم مسيراً ولا سلكتهم وادياً إلا كانوا معكم فيه) قالوا : يا رسول الله وهم بالمدينة ؟ قال (وهم بالمدينة ، حبسهم العذر) (٣) .

٤- القسم الرابع : من كانت قدرتهم ناقصة ، وإرادتهم للحق قاصرة ، وفيهم من إرادة الباطل ما الله به عليم ، فهؤلاء ضعفاء المؤمنين (٤)

(١) السراج الطوسي (اللمع) ص ٨٦ .

(٢) ابن تيمية - مجموعة الفتاوى الكبرى ، ج ١٨ ، ص ٣١٥ ، دار الكتب الحديثة .

(٣) البخاري في الجهاد (٢٨٣٩) ومسلم في الإمامة (١٥٩ / ١٩١١) وابن ماجه في الجهاد (٢٧٦٤) ، (٢٧٦٥) .

(٤) ابن تيمية - قاعدة في المحبة ، ص ١٦٩ .

وقد نظر ابن تيمية إلى محبة المريدين ^(١) للشيخ ^(٢) ومتابعتهم لهم فيرى أن محبة " الشيخ المخالفين للشرعية تؤدي إلى الهلاك ، وأما محبة أولياء الله المتقين ، مثل الخلفاء الراشدين وغيرهم من السلف الصالحين فإن (محبتهم من أوثق عرى الإيمان وأعظم حسنات المتقين) ^(٣)

وكما قلنا فإن ابن تيمية مثله مثل علماء السلف السابقين عليه والتابعين له ليست المحبة عندهم " من نوع العاطفة المتأججة التي تجعل من صاحبها هائماً علي وجهه ، تاركاً الفروض والتكاليف مقبلاً علي النواهي مردداً للأذكار ، مهلاً بالتساويح يتواجد أينما حل ، وإنما المحبة الحقيقية هي فيصل التفرقة بين المؤمن الجاد في إيمانه الذي يحب ما يحب الله ويتجنب ما يكرهه " ^(٤)

^(١) المريد / هو ممالك الطريق الذي يسير في الطريقة حسب إرشادات شيخه فيسلك طريقه كما يرسمه له شيخه حتي يصل إلي غايته ، ويبدأ طريقه بالتوبة إلي الله تعالى — ثم — أخذ العهد من الشيخ بطاعة الله ورسوله والسير في طريقه ثم تلقين الذكر دوماً في مراحل — من الشيخ — وأهم ما ينبغي عليه بعد حسن اختياره لشيخه هو الطاعة لأوامر الشيخ .

انظر — للزيادة (د/ عامر النجار) الطرق الصوفية ، ص ٢٦ .

^(٢) الشيخ : هو بمثابة الأستاذ للمريد (ولابد لمن يسلك للطريق الصوفي الصعب من مرشد أو هاد يأخذ بيده . وهو الشيخ) انظر — د/ سعيد عاشور (السيد أحمد البدوي شيخ وطريقة) سلسلة أعلام العرب — طبعة دارى للكتاب العربي — وزارة للثقافة ، ط ٢ ، ١٩٦٧م ، ص ١٨٣ . ودور الشيخ (أن يفتح للناس بإذن الله أبواباً ومنافذ يشرفون منها علي أضواء الحقيقة) انظر (السيد محمود أبو الفيضي المنوفي) المدخل إلي التصوف الإسلامي ، العدد ٧١ ، من سلسلة — مذاهب وشخصيات — ص ٦١ — طبعة الدار القوية للطباعة والنشر .

(وتلقين الشيخ للمريد يلحق باطن المريد ويسري فيه كأنما يلحق من سراج ، فعلي المريد — اختيار الشيخ للصالح المشهود له بالعلم والمعارف وإتقاء المحارم) انظر (شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردي) عوارف المعارف طبعة مصر ١٩٣٩ ، ص ٧٠ .

وانظر كذلك للزيادة (د/ عامر النجار) الطرق للصوفية نشأتها ونظمها وروادها — دار للمعارف ، ط ٥ ، ١٩٩٢ ، ص ٢٤ .

^(٣) ابن تيمية — مجموع الفتاوى ، ج ١٨ ، ص ٣١٥ .

^(٤) د/ مصطفى حلمي (أعمال القلوب) ، ص ١٥٧ .

وهكذا فإننا نرى أن دائرة المحبة قد اتسعت عند ابن تيمية لكي تشمل جميع المؤمنين ولهذا فقد انتقد التعصب (للشيوخ بأعيانهم دون غيرهم) (١) . ولكي تكون المحبة خالصة بمعناها المثالي ، فينبغي أن تكون خالصة لوجه الله تعالى لا لهدف أو لمنفعة أو غير ذلك ، وقد جاء في جامع العلوم والحكم أن (المحبة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة في حب المحبوبات وبغض المكروهات) (٢) وبهذا يجب أن تكون خالصة لله تعالى وبغير ذلك (تصبح محبة الأشخاص تبعاً للهوى بغرض تحقيق مآرب خاصة أو ما شابه ذلك) (٣) قال تعالى " قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ " (٤) ومن هنا فإن المحبة التامة لرسوله ﷺ شرطها المتابعة التامة وذلك بنص الآية وإذا كانت عبادة الله تجمع (كمال المحبة له ، وكمال الذل له) (٥) فإن هذا الذل الذي هو الخضوع لله وحده والاستسلام له وحده سوف يمنح القلب الحرية في مواجهة غير الله لأنه سوف يحرره من تشتت العبودية لغير الله فيصبح الهم واحد لأنه متجه بكلية إلى الواحد الحق — سبحانه وتعالى — " فكلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية ، وكلما ازداد له حباً وحرية عما سواه) (٦) ولذا يفهم العارفون الخبر الذي أخبر به الله تعالى عن المحب الحقيقي الذي استهلك نفسه في العبودية حتي ضرب به المثل فأخبر عنه سيده في غير ما موضع فقال " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا " (٧) وقال :

(١) ابن تيمية — مجموع الفتاوى ج ١٨ ، ص ٣٢٠ .

(٢) ابن رجب (ت ٧٩٥هـ) جامع العلوم والحكم ص ٢٨٢ ، مكتبة دار التراث — القاهرة —

١٩٨٩م .

(٣) د/ مصطفى حلمي / ابن تيمية والتصوف ص ٣٤١ ، دار الدعوة ، ط ٢ ، ١٩٨٢م .

(٤) سورة آل عمران (٣١)

(٥) ابن تيمية : الفتاوى ج ١٨ ، ص ٣٢٠ ، قاعدة في المحبة ، ص ١٩٦ .

(٦) السلوك من مجموع الفتاوى ج ١٠ ، ص ١٩٣ .

(٧) سورة الإسراء (١)

وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ^(١) حَتَّى اتَّسَعَتِ الدَّائِرَةُ فَشَمِلَتْ الْإِخْبَارَ عَنْ كُلِّ مَنْ ذَاقَ حَلَاوَةَ الْعِبُودِيَّةِ فَأَعْلَى سَيِّدِهِمْ ذَكَرَهُمْ فَقَالَ " وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا " ^(٢)

" صِلَةُ أَحِبِّ بِالْإِرَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَوَرَعُهُ فِي السُّلُوكِ الْأَخْلَاقِيِّ "

إن الإنسان بطبيعته يسعى لما فيه نفعه ولا صلاح له إلا بإقامة ما خلق من أجله قال تعالى " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ " ^(٣) فصلاح أمرنا ومقصدنا متمثل في عبادة ربنا عز وجل ، وحركتنا إلي هذا الصلاح ناتجة عن كثرة الهم وهو أول الإرادة " ومن المعلوم أن كل حي له إرادة وعمل بحسبه ، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة ولا صلاح للموجودات إلا أن يكون كمال محبتها وحركتها لله تعالى كما لا وجود لها إلا أن يبدعها الله ، وإن صلاح الحي إنما هو صلاح مقصوده وإرادته ، وصلاح الأعمال والحركات بصلاح إرادتها ونياتها والنية موجودة لكل متحرك كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح ^(٤) (أصدق الأسماء الحارث وهمام) ^(٥) فالحارث هو العامل الكاسب والهمام هو القاصد المرید ، وكل إنسان متحرك

(١) سورة الجن (١٩)

(٢) سورة الفرقان (٦٣)

(٣) سورة الذاريات (٥٦)

(٤) جاء الحديث مطولاً عن أبي وهب الجشمي رضي الله عنه في سنن أبي داود ٤ / ٣٩٤ كتاب الأدب - باب في تغيير الأسماء - ونصه فيه (تسموا بأسماء الأنبياء ، وأحب الأسماء إلي الله عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة) والحديث عنه أيضاً في المسند ٤ / ٣٤٥ - وجاء حديث آخر نصه : (أحب الأسماء إلي الله عبد الله وعبد الرحمن) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في سنن أبي داود في الموضع السابق وهو في مسلم وسنن الترمذي وابن ماجه والنسائي والدارمي .

(٥) سنن أبي داود (٤ / ٣٩٤) ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي :

بإرادته حارث وهمام (١) " والحركات تنقسم إلى ثلاثة أقسام : طبيعية ، وقسرية — ، وإرادية : فالقسرية هي ما كانت من المتحرك دون شعور منه ، والإرادية هي المقترنة بالشعور. التي تكون باختيار العبد " (٢) والإرادية هي المسيطرة علي سائر الحركات لذا فإن الطبيعية نجدها تابعة للقسرية فلا تعرف الأخيرة إلا بخروج المطبوع عن مركزه مثل صعود الحجر إلي أعلى فطبيعته السقوط إلي أسفل ، أي أن الطبيعة مستلزمة للقسرية والقسرية مستلزمة للإرادية " فمبدأ الحركات كلها هي الإرادية " (٣) لذا فابن تيمية يجعل تحرك الإنسان إلي صلاحه تحركاً ذاتياً لا دخل لأحد فيه فهو حر الإرادة ، إن شاء سعي للصلاة وإن شاء ركن . قال تعالى " فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ " (٤) لذا فإن ترك الشيء أو فعله ناشيء من حب المرء له أو بغضه ، فإن لم يكن البغض لنفسه فللوازمه ، والإنسان لا يترك المحبوب إلا لمحبوب أقوى منه ، فالبغض ناتج عن الحب [بخلاف الحب فإنه قد يكون لنفسه لا لأجل منافاة للبغض] (٥) ومن ثم يتبين لنا أن الحب أصل الحركات ، ليست الإيمانية فقط ، بل إن كل حركة في الوجود هي عبارة متضمنة حب الحق تبارك وتعالى وإرادته وقصده " فالحب أصل حركة الإنسان والسموات والأرض ومن فيهن " (٦)

وتتضح نظرية الحب عند ابن تيمية عندما يستعرض المحبة لله تعالى لذاته — فهو يشرح الحب الإنساني — بين البشر — ويرى أنه لا بد فيه من أن تتوافر القوة الإرادية التي يدفع بها المرء عن نفسه جاذبية الغير من الناس

(١) ابن تيمية : قاعدة في المحبة ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٢) ابن تيمية — العقل والنقل ٩ / ٣٧٣ - ٣٧٥ ، قاعدة في المحبة ص ١٩٥ .

(٣) السابق — قاعدة المحبة ، ص ١٩٥ .

(٤) سورة الكهف (٢٩)

(٥) ابن تيمية — قاعدة في المحبة ، ص ١٩٤ .

(٦) السابق ص ١٩٤ .

، ويضرب علي ذلك مثلاً بحب امرأة العزيز ليوسف عليه السلام ، فإن يوسف كان لديه من ذخيرة المحبة لله والإخلاص له والخشية منه ، ما مكنه من مغالبة جمال المرأة وحبها لها ، فالمحبة إذن بين البشر أصلها تحقيق الأغراض أو السعي في الأذي بواسطة الخصوم ، فمحبة الأصدقاء للمرء تعود إلي محبة المنافع التي تتحقق لهم منه حتي يصبح كالعبد لهم (ومن أحب أحداً غير الله كان ضرر أصدقائه عليه أعظم من ضرر أعدائه) (١)

”علة المحبة“

يري ابن تيمية أنه لما كانت ” كل حركة وعمل في العالم فأصلها المحبة والإرادة وكل محبة وإرادة لا يكون أصلها محبة الله وإرادة وجهه فهي باطلة فاسدة كان كل عمل لا يراد به وجهه باطلاً . لذا فإنه يفرق بين علتين في الحركة والإرادة الأولى هي الفاعلية والثانية الغائية . فهو يري أنه (لا يصلح أن يكون شيء من المخلوقات علة فاعلية ولا غائية ، إذ لا يستقل مخلوق بأن يكون علة تامة قط ، ولهذا لم يصدر عن مخلوق واحد شيء قط ولا يصدر شيء في الآثار إلا عن اثنين من المخلوقات ، وكذلك لا يصلح شيء من المخلوقات أن يكون علة غائية تامة ، إذ ليس شيء من المخلوقات كمال مقصود حتي من الأحياء فالمخلوقات بأسرها يجتمع فيها هذان النقصان : أحدهما : أنه لا يصلح شيء فيها أن تكون علة تامة ، لا فاعلية ولا غائية ، والثاني : أن ما كان فيها علة فله علة سواء كان علة فاعلية أو غائية) (٢) وبهذا فإن كل الحركات النابعة من إرادات مفتقرة إلي العلة الغائية التي هي في الحقيقة (المحبة) التي بها تتحرك العلة الفاعلية وإنما هو افتقار لذاتها لا لغيرها أي أن جنس الحركات كلها مستلزم لمزاد بذاته (وهو المعبود الذي

(١) ابن تيمية — السلوك ٦٠٥/١٠ من الفتاوى الكبرى .

(٢) ابن تيمية — قاعدة في المحبة — ص ٢١٠ .

يستحق العبادة لذاته (١) وكل الأشياء تفقر إليه من جهتي الربوبية والإلهية فقوام تلك الحركات بالمراد لذاته ، فإذا أشرك الإنسان معه شيئاً فقد أفسد ذاته وقوامه ، لأن كل شيء بدونه لا يكون وما كان لغيره لا يصلح وبهذا فسر ابن تيمية (٢) قوله تعالى " وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ " (٣) وما هذا إلا لفساد الفطرة والإدراك والنية كما قد أشرنا من قبل . وذلك لأن النية — خاصة — هي الحكم الفصل في السعادة الإنسانية ، وتكون في سائر الأعمال لذا فمن جوامع الكلم قول الرسول ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوي) (٤) وتوجيهها هو مدار الثواب والعقاب ، وهي في مفهوم ابن تيمية غير مقيدة بالنية الشرعية التي أمر بها الحق الإنساني ، وإنما يتسع مفهومها لديه فيقول (النية موجودة لكل متحرك) (٥) لأنها تعم كل عمل ونية ولما كان الإيمان ينقسم إلي قسمين هما القول والعمل وكان الأول أصله التصديق والثاني أصله الحب إذ الحب أصل كل عمل من حق وباطل ، ومحبة الشيء تتفاوت بحسب قوة الإيمان والمعرفة قوة وضعفاً ، وعلي هذا فإن (التصديق بالمحبة هو أصل الإيمان) (٦) وهنا تتحقق السعادة في أعلى مراتبها ، إذا ما التقت العلتان اللتان تحركان القلب وأقصد العلة الغائية ، وهي عبادة الله ، والثانية العلة الفاعلية ، وهي الاستعانة والتوكل يقول ابن تيمية : (فالقلب لا

(١) ابن تيمية : كتاب النبوات ، قام بتصحيحه الشيخ / محمد حامد الفقي — مكتبة السنة المحمدية — بدون تاريخ ، وشرح حديث النزول ص ١٤١ ، ١٤٢ ، المكتب الإسلامي ، ط ٥ ، ١٩٧٧ م .

(٢) ابن تيمية — النبوات — ص ٧٧ .

(٣) سورة الحج : آية ٣١ .

(٤) ابن تيمية — قاعدة في المحبة — ص ٢٠١ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) البخاري ، ج ١ ، ص ٣ — ٦٨ ، رقم ١ كتاب بدء الوحي — باب كيف كان بدء الوحي علي

يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه (١) لذا فقد بين ابن تيمية أن المحبة أصبحت عنصراً يحرك المؤمن نحو فعل الخير وتحقيق السعادة .

ذلك إلي جانب نظريته في حرية قلب المؤمن ، - لأنها أصبحت خالية من كل ما سوي الله (فالحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب كما أن الغني غني النفس) (٢) وبذلك فقد تحققت حرية القلب لأنه (لا يصلح ، ولا يفلح ، ولا يلتذ ، ولا يسر ، ولا يطيب ، ولا يسكن ، ولا يطمئن ، إلا بعبادة ربه وحبه ، والإنابة إليه . (٣) ” أسباب المحبة ”

وليس المقصود بأسباب المحبة الجالبة لها من أصلها وإنما هي الأسباب التي تعمل علي نموها وزيادتها والتي هي كالخوف والرجاء (٤) مثلاً فإنها محرك يدفع المحب نحو الله تبارك وتعالى ، ومن أهم هذه الأسباب :-
١- حب القرآن الكريم وتلاوته .

فتلاوته وتدبره يتولد عنهما شيان : الأول : قوة الحب للحق ، والثاني : معرفته وهما ما ينبثق عنهما الخوف منه وحده ، وإفراده بالرجاء عن سواه ، فحب القرآن وتلاوته يزيدان الإيمان في القلب - والإيمان يزيد وينقص - كما أن المعرفة بمعانيه تحصل في القلب رغبة ، وتدفع عنه من الشر ما لا يستطيع دفعه غيره قال تعالى " وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا " (٥)

(١) ابن تيمية - الملوك - ص ١٩٤ من مجموع الفتاوي الكبرى .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

(٣) ابن تيمية - الإيمان - ص ١٩ . دار عمر بن الخطاب للطباعة والنشر والتوزيع - الإسكندرية - بدون تاريخ .

(٤) ابن تيمية - الفتاوي الكبرى ، ج ١ ، ص ٩٥ .

(٥) سورة الأنفال (٢)

وتلاوة القرآن عند ابن تيمية إنما هي القيام بأوامر الحق واتباعها وليس
ترديداً باللسان أو بالقلب فقط قال ابن مسعود في تفسير قوله تعالى " الَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ " (١) قال (يحلون حلاله
ويحرمون حرامه ، ويؤمنون به ، ويعملون بمحكمه) (٢) وهذا الحب المتزايد
للقرآن الكريم مستمر علي مر القرون ، وتقديسه يدل علي شدة تأثيره في
القلوب حتي أنه ليعتبر من (أعظم الأمور الخارقة للعادة) (٣) لذا فإن من
خصائص القرآن الطمأنينة في نفوس المؤمنين من الإنس والجن ويزيدهم
خشوعاً وسكينة ويقيناً قال تعالى " أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ " (٤) فيندفع
القلب المطمئن في ترجمة تلك الأعمال والأوامر، وهذا أفضل شيء يعطاه
العبد قال ﷺ (سلوا الله اليقين والعافية) (٥) فبالقرآن يرتقي العبد في
الدرجات وبه يعيش القلب في نور الآيات التي تزيدهم نورا . ويتعدى تأثير
القرآن إلي الجبال وسائر الجمادات قال تعالى " لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى
جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ " (٦) فهانئ تنبيهه فيه توبيخ للإنسان
علي ما في قلبه من قسوة وغلظة مع ضعفه وحقارته عند سماع القرآن
بخلاف الجبل الصلد الذي لو أنزل عليه القرآن لتخشع وتصدع خشية من
الحق تعالى (٧) يقول الطبري (١) (ت ٣١٠ هـ) (وهذه الأشياء للناس وذلك

(١) سورة البقرة (١٢١)

(٢) ابن تيمية : العبودية ٣٣ ، الإيمان ١٢٧-١٢٨ .

(٣) الصنفية ١/٢٢٣-١٢٤ — تحقيق د/ محمد رشاد سالم — مطابع حنيفة الرياض / ١٣٩٦ هـ ،

١٩٧٦ م .

(٤) سورة الرعد : آية ٢٨ .

(٥) الترمذي ٥٧٧/٥ كتاب الدعوات باب العفو والعافية .

(٦) سورة الحشر (٢١)

(٧) أبو حيان — البحر المحيط ٨/ ٢٥٠ (محمد بن يوسف) ، طبع بالتصوير عن طبعة

مولاي السلطان عبد الحفيظ سلطان المغرب ، ط ٢ ، دار الفكر ١٣٩٨ هـ / ١٩٨٧ م .

تعريفه جل ثناؤه إياهم أن الجبال أشد تعظيماً لحقه منهم مع قساوتها وصلابتها (٢).

٢- المعرفة (٣)

لقد اتفق السلفية ومشايخ الصوفية علي الاستدلال الفطري في معرفة الله ، قال رجل للنوري (ت ٢٩٥ هـ) ما الدليل علي الله ؟ قال : الله ، قال فما العقل ؟ قال : العقل عاجز ، والعاجز

(١) الطبري : تفسير الطبري ، تحقيق (محمود محمد شاكر) راجعه وخرّج أحاديثه أحمد محمد شاكر — دار المعارف .

يري الهجويري في — كشف المحجوب ومعرفة الله تعالى علي نوعين : أحدهما : علم ، والآخر : حال والمعرفة العلمية هي قاعدة جميع خيرات الدنيا والآخرة . وأهم الأشياء للعبد في جميع الأحوال والأوقات معرفة الله جل جلاله فالمعرفة حياة القلب بالحق ، وإعراض الشر عما سوى الحق ، وقيمة كل امرئ بمعرفته ، ومن لا معرفة له لا قيمة له ، فالناس من علماء وفقهاء وغيرهم سموا صحة العلم بالله : المعرفة ، ومشايخ هذه الطائفة سموا صحة الحال بالله : المعرفة .
انظر — كشف المحجوب — للهجويري / دراسة وتحقيق وتعليق د/ سعاد عبد الهادي قنديل ص ٦٢٦ .

وجاء في (المقننة في التصوف) للمسلمي ، تحقيق / يوسف زيدان — أن المعرفة ثلاثة ، معرفة اللسان وهو الإقرار ، ومعرفة القلب وهو التصديق ومعرفة الروح وهو اليقين ، والمعرفة هي أول فرض افترضه الله علي عباده ، بدليل قوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (الذاريات : آية ٥٦) قال ابن عباس : أي ليعرفون ص ١٣٥ .
(١) تفسير القرطبي ٣٢ / ٢٨ .

(٢) والمعرفة من النهايات وفي كشف اصطلاحات الفنون للتهانوي :

النهاية : عند الصوفية متعددة للدلالات فهي بكسر النون : (الرجوع إلي البداية) .

وجاء في معجم مصطلحات الصوفية ص ٢٥٩ تأليف د/ عبد المنعم حنفي — دار المسيرة — بيروت (أرباب النهايات : استقامات بواطنهم وظواهرهم لله ، وهم عند الله حقيقتهم — جعلهم الله تعالى من جنوده في خلقه بهم يهدي وبهم يرشد ، وبهم يجنب أهل الإرادة ، وظواهرهم محفوظ ، وبواطنهم معمر بالعلم)

في معجم مصطلحات الصوفية (للكاشاني) هي : الإحاطة بعين الحقيقة بالحقيقة علي ما هي عليه.

لا يدل إلا علي عاجز مثله " (١) وهذه المعرفة الفطرية متوقفة علي سلامة الفطرة أصلاً فيفسادها تضعف المعرفة ، وبالتالي يضعف الحب إذ المعرفة أصل المحبة يقول الشيخ (والحب يقوى بسبب المعرفة وسلامة الفكرة ، ونقصها من نقص المعرفة) (٢) والفطرة لا تفسد إلا بالأهواء الفاسدة ونسيان الذكر ويرى ابن تيمية أن " من فسدت فطرته فاحتاج إلي دواء فهم محتاجون إلي النظر والاستدلال لتذكيرهم بالمعرفة الفطرية الضرورية ، وقد أخطأ كثير من أهل الكلام بأن المعرفة لا تقع إلا بنظر وكسب وحجتهم فني ذلك أن المعرفة لو وقعت ضرورة بدون كسب ونظر لارتفع التكليف ، وهذا خطأ " (٣) قال تعالى " نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ " (٤) وليس معني هذا أن الإنسان يظل علي الفطرة الأولى ثابتاً دون تغيير ودون زيادة ، وإنما المعرفة تتفاوت بتفاوت الجهد المبذول للمحافظة علي سلامتها بالفطرة ، وإلا لتساوى الناس جميعاً في درجة واحدة في المعرفة أي أنه ينبغي أن تقتزن المعرفة الفطرية بجهد مبذول للمحافظة عليها قال تعالى (في الحديث القدسي : ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتي أحبه) (٥) والسلف مع

(١) الكلاباذي / التعرف ص ٦٣ . وما بعدها .

(٢) ابن تيمية — درء العقل والنقل ، طبع علي نفقة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ط ١ ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ج ٦ ، ص ٧٣ .

(٣) جامع الرسائل / ابن تيمية ص ١٤٧ ، تحقيق د/ محمد رشاد سالم ط ١ ، ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩م

(٤) سورة الحشر (١٦)

(٥) مسند الإمام أحمد بن محمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ) المسند / شرحه ووضع فهارسه للشيخ / أحمد محمد شاكر ، ط ٢ ، دار المعارف — مصر ، وقد جمع الإمام أحمد بن حنبل — ثلاثين ألف حديث في مسنده .

هذا يرون أن الفطرة هي (الإسلام بدليل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تشرح لنا معنى الفطرة وإذا احتاج الناس إلي النظر والاستدلال للتذكير بالفطرة التي خلقوا عليها فإن النظر يكون في كتاب الله الكريم وذلك خير من النظر في كتب المتكلمين) ^(١) والنفس الإنسانية قد جبلت علي حب الخير وبغض الضار، ولكن يعرض لها شيئان يفسدانها :-

١- الشهوات ^(٢) التي تصد عن طريق الاتباع .

٢- الشبهات ^(٣) التي تصد الإنسان عن طريق الخير والفلاح .

وابن تيمية يشبه من هذا حاله باليهود والنصارى فيري أن اليهود لهم معرفة بلا قصد ، والنصارى لهم قصد بلا معرفة قال تعالى " وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ " ^(٤) وبذلك يتضح أن من فسدت فطرته فقد فسدت قوتاه العلمية والعملية .

(١) د/ الطبلاني محمود سعد / التصوف في تراث ابن تيمية ص ١٠٠ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م .

(٢) شهوة : كرضية ودعاء واشتهاء وتغها : أحبه ورغب فيه ورجل شهوي وشهوان وشهواني وهي شهوي : ح : شهواني ، وتغهي : لفتح شهوة بعد شهوة .

وفي المصباح : الشهوة : اشتياق النفس إلي شيء ، والجمع شهوات - ١ - هـ . ص ١٦٧٨ . القاموس المحيط للفيروزآبازي - تحقيق - مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة - إشراف : محمد نجيم العرقموسي ، ط ٥ ، ١٤١٦ هـ - بيروت - مؤسسة الرسالة للطبع والنشر والتوزيع ، تأليف - العلامة للغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبازي (ت ٨١٧ هـ) .

(٣) جاء في القاموس المحيط الشبهة : هي الالتباس والمثل وشبهه عليه الأمر تشبيهاً لئس عليه ص ١٦١٠ .

(٤) سورة الملك (١٠)

إن " توحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته واستعانتته في القرآن : كثير جداً بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره " (٢) فإذا وحد الموحّد ربه تعالى وجب عليه تذكّره وإن كثرة ذكر المحبوب تجعل القلب دائماً التعلّق والاشتغال به وقد حتّنا المولى جلّ وعلا في كثير من آياته علي الذكر فقال تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا " (٣) وأفضل الذكر (لا إله إلا الله) (٤) وقال ﷺ (اذكروا الله حتّى يقولوا مجنون) (٥) ويقسم ابن تيمية الذكر مراتب ثلاثة : الأولى : اجتماع الذكر بالقلب واللسان معاً ، والثانية : بالقلب وحده ، والثالثة : انفراد اللسان ، وذكر الله تعالى باللسان فقط وإن لم يكن للقلب فيه نصيب فإن ابن تيمية — رحمه الله تعالى — يرى أن هذا خير من عدمه (٦) والذكر يجعل العبد يعيش في معية الله قال تعالى (في

(١) جاءت لفظة (الذكر) في القرآن الكريم بجميع مشتقاتها في القرآن الكريم (٢٦٨ مرة)
انظر / (محمد فؤاد عبد الباقي — المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) . دار الحديث — القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م . وفي القاموس المحيط الذكر : بالكسر : الحفظ للشئ ، كالنكر والشئ يجري علي اللسان ، والصيت ص ٥٠٧ .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال : مثل الذي ينكر ربه والذي لا ينكره ، مثل الحي والميت ، رواه البخاري ورواه مسلم وقال : " مثل البيت الذي ينكر الله فيه والبيت لا ينكر الله فيه مثل الحي والميت " .

(الإمام — محي الدين النوي — رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين — دار الكتب العلمية — بيروت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

(٢) قاعدة في توحيد الألوهية — تحقيق د/ محمد السيد الجليلند — القاهرة — دار الفكر الحديثة .

(٣) سورة الأحزاب (٤٢)

(٤) الحاكم (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) المستدرك علي الصحيحين ، مكتبة ومطابع النصر الحديثة — الرياض .

(٥) ابن تيمية : الاستقامة — تحقيق د/ محمد رشاد سالم ، طبع علي نفقة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ط ١ ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م .

(٦) المرجع السابق ، ١٧ / ٢ .

الحديث القدسي : وأنا معه حين يذكرني (^(١)) وكيف لا يكون العبد مع ربه وهو بذكره يرتفع في جنته قال : ﷺ (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا : قيل وما رياض الجنة ؟ قال مجالس الذكر) (^(٢)) ولعلها الجنة التي عاشها ابن تيمية " وأخبر أن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة (^(٣)) ويشد الذكر للحق ويقوي الحب بمطالعة نعمه عز وجل ، إذ النفوس قد جبلت علي حب من أحسن إليها .

قال ﷺ : (أحبوا الله لما يغزوكم به من نعمه) (^(٤)) وقد قال الله تعالى يذكرنا بنعمه علينا مبيناً أن في ذلك فلاحنا " فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ " (^(٥)) وقال " وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً " (^(٦)) ولا يقصر ابن تيمية الذكر علي الإنكار التقليدية ولكنه واسع شامل يمتد حتي يصل إلي كل (ما تكلم به اللسان ، وتصوره القلب مما يقرب إلي الله من تعلم علم وتعليمه ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو من ذكر الله) (^(٧)) يقول الإمام النووي (^(٨)) (ت ٦٧٦هـ) (اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في

(١) الترمذي ٥ / ٥٨٠ ، كتاب الدعوات ، باب في حسن الظن بالله وقال حديث حسن صحيح ، مسلم / ١٧ / ٢ ، كتاب للذكر والدعاء ، باب للحث علي ذكر الله .

(٢) الترمذي ٥ / ٥٣١ - ٥٣٢ ، كتاب الدعوات باب ٨٣ ، وقال حديث غريب .

(٣) ابن تيمية - الاستقامة ١٢ / ٢ .

(٤) الطبراني : (معجم للطبراني الكبير) للدار العربية للطباعة ، بغداد - ط ١ ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م

(٥) سورة الأعراف (٧٤)

(٦) سورة لقمان (٢٠)

(٧) ابن تيمية : العقل والنقل ١٠ / ٦٦١ ،

(٨) الإمام النووي - الإنكار - مصطفى الحلبي ١٣٤٨ هـ ، القاهرة .

ترجمة - الإمام النووي

هو الإمام يحيى بن شرف بن مري حسن بن حسين بن حزام أبو زكريا محي الدين - ولد عام ٦٣١هـ ، في قرية (نوي) من قري حوران بالقرب من دمشق تتلمذ علي كثير من علماء عصره والمشهورين كان زاهدا ورعا وقرآنا مهيبا ، لا يصرف ساعة في غير طاعة الله ، وقد ولي النووي مشيخة دار الحديث الأشرقية ، يقول الشيخ قطب الدين اللويني : كان أوحده أهل زمانه في العلم والورع والعبادة والفتل وخشونة العيش وتوفي رحمه الله تعالى ٦٧٦هـ . ودفن بالقرية التي ولد بها بعد حياة علمية حافلة .

(انظر ترجمته - في طبقات لاشافعيين السبكي) وأيضا - تذكرة الحفاظ - للذهبي .

التسبيح والتلهيل والتحميد والتكبير ونحوها بل كل عامل لله بطاعة فهو ذاكر لله تعالى كذا قاله سعيد بن جبير (١)

وإذا استغرق الذكر الذاكر انطبعت في نفسه الرضا حتي سكنت روحه فكف عن الشكوي وقبل النوازل بنفس راضية " وهو مقام لا يقدر علي سلوكه إلا قلة من أصحاب السلوك " (٢) ويرصد ابن تيمية الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في سائر الأعمال من أكل وشرب ونكاح ولباس وركوب ونوم وقيام ودخول المسجد والخروج منه وكذلك دخول الخلاء والخروج منه وعند المطر وعند الرعد (٣) فهذا عنده هو الذكر الذي (يوصل الذاكر إلي المذكور بل يدع الذاكر مذكوراً) (٤)

٤- النوافل (٥)

والمحبة تقتضي التقرب إلي المحبوب فإن الذي يحب الله تعالى يحب التقرب منه بما فرضه ثم التقرب إليه تعالى بالنوافل مصداقاً لما جاء في الحديث الشريف وهي تأتي بعد الفرائض التي هي أساس القرب والحب (فحب الله لعبده بحب فعل العبد لما يحبه الله) (٦) والنوافل تأتي في المرتبة الثانية بعد الفرائض . حيث يقول إن هذا التقرب — أي بالنوافل — (إنما يكون إذا فعلت الفرائض) (٧) وهو بهذا يخالف المبتدعة والضالين في الفهم

(١) النووي — الأنكار ، ص ٥ .

(٢) ابن تيمية — جواب أهل الإيمان ، ص ٢٤ ، مطبعة النظم ، ط ١ ، ١٣٢٢هـ .

(٣) ابن تيمية — للعقل والنقل ، ١٠ / ٢٣٠ — ٢٣١ — وانظر الكلم الطيب .

(٤) ابن القيم — المدارج ٥ / ٦٢٣ — دار التراث العربي — القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

(٥) النفل : والنافلة — عطية التطوع ومنه نافلة الصباح و (التنفل) التطوع . (مختار الصحاح ،

ص ٦٧٤ دار الرسالة — الكويت وأيضاً : النافلة : الغنمة والعطية وما تفعله مما لم يجب و (تنفل)

صل النوافل ، القاموس المحيط ، ص ١٣٨٤ ، الرسالة — مؤسسة .

(٦) ابن تيمية : جواب أهل الإيمان ١ / ٨٦ .

(٧) ابن تيمية : السابق ص ٨٦ / ٨٧ .

والقصد أمثال ابن عربي (ت ٣٦ هـ) في ظنه عندما صرح في كتابيه (الفتوحات المكية وفصوص الحكم) ، بأن قُرب الفرائض يتم بعد قُرب الفضائل (١) " والنوافل تجعل الحق غطاءه وتلك تجعل الحق عينه " (٢) وهذا الخطأ إنما أقام نتيجته علي أصل المذهب في وحدة الوجود بينما حديث التقرب يناقض مذهبه — والمحبة الناشئة عن النوافل محبة مستحبة وخاصة بالسابقين الذين فعلوا الفرائض ثم ألحقوها بالنوافل ، وفي الجانب الآخر محبة الفرائض الواجبة علي كل العباد التي من تركها نال بسبب ذلك العقوبة والعذاب .

٥ - الزهد (٣)

إن المحبة في كل الأمور قائمة علي تحقيق الأغراض وخصوصاً في الأمور الدنيوية ولكن حب الله تعالى يقي وحده (المحبوب المعبود لذاته الذي لا يستحق ذلك غيره) (٤) فإذا تحقق العبد بالزهد فإنه يجمع بين حبين يجمعان عليه نفسه وهمه وأولهما حب الله تعالى ، وحب الناس ، وقد جاء رجل إلي النبي ﷺ فقال : يا رسول الله دلني علي عمل إذا عملته أحبني الله ، وأحبنى الناس فقال له ﷺ (ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس

(١) ابن عربي — الفصوص — ص ١٨٣ ، تحقيق وتعليق د/ أبو العلا عفيفي ، ١٣٦٥هـ /

١٩٤٦م — القاهرة — عيسى البابي الحلبي .

(٢) ابن تيمية — جواب أهل العلم والإيمان ، ص ١٣٢ .

(٣) الزهد : ضد الرغبة تقول (زهد) فيه وزهد عنه في باب سلم (زهداً) وأيضاً (وزهد) يزهد بالفتح فيهما (زهداً) وأيضاً (زهاده) بالفتح لغة فيه و (للزهد) التعبد ، و (للزهد) ضد الترغيب و (المزهد) بوزن المرشد القليل المال ، وفي الحديث (أفضل الناس مؤمن مزهد) — مختار الصحاح — لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٦٦٦ هـ) دار الرسالة — الكويت ، ص ٢٧٦ .

(٤) ابن تيمية — الملوك ١٠ / ٦٠٥ .

يحبك الناس) (١) وبهذا فإن ابن تيمية قد فهم الزهد علي أنه ليس عزوفاً عن الدنيا وإنما هو (زهد فيما لا ينفع في الآخرة) (٢) وأما الزهد في النافع فهو (جهل وضلال) قال تعالى : " وَلَا تَتَسَنَّيْكَ مِنَ الدُّنْيَا " (٣) وقال ﷺ (أحرص علي ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز) (٤) وقد شكل ابن تيمية من الزهد (مضموناً روحياً) (٥) حيث يرى أن الزهد قد يكون مع الغني ويكون مع الفقر كذلك.

مفسدات المحبة

وكما قد بينت أن للمحبة أسباباً نتجت عنها وقويت بسببها ، فهناك ما يناقض ذلك من المعوقات والمفاسد التي تثبط المحب فتقف حاجزاً بينه وبين الوصول إلي محبوبه فلا يقوم بالواجب الحبي تجاهه ، وأمّهات المفاسد كلها ، قد تقع من أمرين :

١- الكبر والحسد ٢- الشرك

فإن باب محبة الله تعالى ضل فيه فريقان من الناس : فريق من أهل النظر والكلام والمنتسبين إلي العلم ، جحدوها وكذبوا بحقيقتها .
وفريق من أهل التعبد والتصوف والزهد ، أدخلوا فيها من الاعتقادات والإرادات الفاسدة ما ضاهوا به المشركين .

(١) رواه ابن ماجة وغيره بأسانيد حسنة .

(٢) ابن تيمية — العقل والنقل ٥/١١ / طبع علي نفقة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ط ١ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨١م .

(٣) سورة القصص (٧٧)

(٤) ابن ماجة ٢/ ١٣٩٥ ، كتاب الزهد ، باب التوكل واليقين . (سنن ابن ماجة . حقق نصوصه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وعلّق عليه / أحمد فؤاد عبد الباقي .

(٥) د/ مصطفى حلمي — الزهاد الأوائل ، ص ٢٦ ، دار الدعوة ، ط ١ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٧٩م .

فالأولون يشبهون المستكبرين ، وهؤلاء يشبهون المشركين ، ولهذا يكون الأول في أشباه اليهود ، ويكون الثاني في أشباه النصارى وقد أمرنا الله تعالى أن نقول ^(١) اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ^(٢)

١ - الشرك

" من المعلوم أن كل حي فله إرادة وعمل بحسبه ، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة ، ولا صلاح للموجودات إلا أن يكون كمال محبتها وحركتها لله تعالى كما لا وجود لها إلا أن يبدعها الله ^(٣) ، ولهذا قال تعالى : " لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا " ^(٤) فمن أشرك مع الله أحداً في الذل أو في الطاعة (لم يحصل له حقيقة الحب والتعظيم ، فإن الشرك يوجب نقص المحبة) ^(٥) لذا كان المؤمن أشد حبا لله تعالى " وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ " ^(٦) وعلي قدر تخلص القلب من الشركاء تزداد المحبة حتي يصير الواحد من بني آدم (خيراً من ملئ الأرض من الآدميين) ^(٧) وصدق الله حيث يقول " وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ " ^(٨) ودين الله " ما بعث به رسله ،

(١) ابن تيمية - قاعدة في المحبة ، ص ٢٤٥ .

(٢) فاتحة الكتاب (٦ ، ٧) .

(٣) ابن تيمية ، قاعدة في المحبة ، ص ٢٠٠ .

(٤) سورة الأنبياء (٢٢)

(٥) ابن تيمية - الإيمان الأوسط ، ص ٧٧ ، مكتبة الفرقان ومكتبة الإيمان - بدون تاريخ .

(٦) سورة البقرة (١٦٥)

(٧) المرجع السابق ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٨) سورة البينة (٥)

وأُنزل به كتبه ، وهو الصراط المستقيم وهو طريق أصحاب رسول الله ﷺ
خير القرون ن وأفضل الأمة ، وأكرمهم علي الله تعالى بعد النبيين (١).

فالشرك طريق الإفساد وتحول القلوب عند رب العباد مما يحقق إنتفاء
طاعة العبد لأمر الرب سبحانه وتعالى وإنكار العبد لأمر الرسول ﷺ وهذا
يؤدي إلى تحول للعبد من المحبة إلى الكراهية من اليقين إلى الشك ومن
الإيمان إلى الكفر كل هذه الأشياء تجعل تلك النطفة أي القلب كالنكتة السوداء
ينتنف فيها معين الخير ويبقى الشر .

فالشرك يؤدي بصاحبه إلى حب النفس والأنانية وإنتفاء غاية أفعالة .
لإنتفاء الثواب والعقاب من ذاكرته العقلية ولهذا يعد الشرك من
مسفدات المحبة سواء لله سبحانه وتعالى أو لعباده .

(١) ابن تيمية ، الرسالة التكميرية ، ص ٨٣ - تحقيق وتعليق (محمد حامد الفقي) رئيس جماعة
أنصار السنة المحمدية - مكتبة السنة المحمدية .

٢ - الكبر والحسد

وهما من أمراض القلوب وهما من إضرار القلب وكسبه المذموم وقد أخبرنا الله أنه إثم وأنه باطن ^(١) حيث قال : " وَتَرَوْا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ^(٢) " ويرى الشيخ أن الحسد " هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود " ^(٣) ويضرب لنا مثلاً في الحسد بقصة يوسف عليه السلام مع أخوته حيث حسدوه وأخوه علي تفضيل الأب لهما ^(٤) والكبر والحسد يمنعان النفس الإنسانية من أن تسلم قيادها للمولي عز وجل ، حتي لو اجتمعت فيها قوتي العلم والتصديق ، ذلك لأن الإرادة قد انتفتت ، أي أنه لا بد أن تجتمع القوي الثلاث - العلم بالحق والتصديق به مع (إرادة الحق والحب له) ^(٥) فعندما تغيب الإرادة ويبقى الاستكبار بوجه المحبة لغير الله تعالى فيصرفه عما جبل عليه في الفطرة (والقلب إنما خلق لأجل الله) ^(٦) وقد نهى النبي ﷺ عن الحسد والبغض المؤدي إلي الهوي المضل فقال : (لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً) ^(٧) وقال أيضاً : (دب فيكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء ، وهي الحالقة ، أما إني لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين) ^(٨)

أقسام المحبة ودرجاتها

بعد أن انتضح أن الأعمال والإرادات والنيات كذلك أصلها الحب وأن الأعمال تبعاً لذلك منها ما هو صالح ومنها ما هو فاسد وجب توضيح أن

-
- (١) المحاسبى - القصد والرجوع إلي الله ص ٩٣ / دراسة وتحقيق / عبد القادر أحمد عطا - دار التراث العربي ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
 (٢) سورة الأنعام : آية ١٢٠ .
 (٣) ابن تيمية - أمراض القلوب - ص ٢٥ .
 (٤) للمرجع السابق ، ص ٢٣ .
 (٥) ابن تيمية - الإيمان الأوسط ، ص ٧٧ .
 (٦) ابن تيمية - العقل والنقل ١٠ / ١٢٩ .
 (٧) مسلم : ١٦ / ١١٥ ، كتاب البر والصلة والأدب ، باب تحريم التحامد والتباغض والتدابير .
 (٨) المرجع السابق ص ١١٥ .

بعد أن اتضح أن الأعمال والإرادات والنيات كذلك أصلها الحب وأن الأعمال تبعاً لذلك منها ما هو صالح ومنها ما هو فاسد وجب توضيح أن المحبة جنس عام تحته أقسام ودرجات متفاوتة في الوصف والقدر لذا فقد قسمها ابن تيمية إلى قسمين :

الأول : المحبة المحمودة

" وهذه هي المحبة الإخلاصية المقترنة بالتوحيد والخالصة لله وحده علي متابعة رسول الله ﷺ " (١) وقد انقسمت هذه المحبة إلى درجات بحسب زيادة الإيمان ونقصانه في القلب ، فأهل التوحيد " الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يبقى أحد منهم في العذاب ، وجماع القرآن هو الأمر بتلك المحبة ولوازمها " (٢) وقد انقسمت المحبة تبعاً لهذا الأصل إلى قسمين — الأول (واجبة) وهي فرض علي الإنسان ويجب عليه فيها أن يكون الحق في قلبه علماً ومعرفة وأن يحبه هو ورسوله ﷺ ، وأن يكونا أحب إليه مما سواهما وأن لا ييغض ما أحبه الله ورسوله ، وتلك الدرجة تتطلب منه محبة جميع ما أحبه الله تعالى (٣) فإذا حقق الإنسان هذا كان من المقتصدين فإذا ترك شيئاً من الواجب المفروض عليه كان ظالماً لنفسه " واندرج تحت القسم الثاني من المحبة وهي المذمومة " (٤)

أما الدرجة الثانية من هذه المحبة : فهي المستحبة ولا يقوم بها إلا السابقون المقربون أولئك الذين وافق مرادهم مراد الحق تبارك وتعالى

(١) د/ مصطفى حلمي — ابن تيمية ، ص ٣٤٣ ، دار الدعوة — الإسكندرية .

(٢) ابن تيمية — قاعدة في المحبة ، ص ١٩٧ .

(٣) ابن تيمية — الرسائل والمسائل — الرد علي ابن عربي ، ص ٦٣ ، ط ١ ، دار المنار .

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٤ .

موافقة تامة ، فأتوا بالفرائض والنوافل فصاروا كما ذكر الله عنهم في الحديث القدسي (ما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتي أحبه ...) (١)

الثاني : المحبة المذمومة

قد تذكر المحبة المطلقة " لكن تقع فيها الشراكة " (٢) كما قال الله تعالى : " وَمَنْ النَّاسَ مَن يَتَّخِذْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ " (٣) وهي من أفسد أنواع المحبة حيث يترك العبد ما فرض الله عليه ، ويكون عمله لغير الله " ولهذا كان هذا الحب أعظم الأقسام المذمومة في المحبة وجماع القرآن النهي عن هذه المحبات ولوازمها " (٤) ويبين ابن تيمية الفرق بين القسمين في المحبة لله والمحبة مع الله ، بحب أبي بكر للنبي ﷺ الذي كان خالصاً لله تعالى ، وحب أبي طالب الذي أحب النبي لهواه لا لله تعالى فكان أن تقبل الله من أبي بكر دون أبي طالب " (٥)

حدود المحبة

لقد اختلفت الآراء حول تحديد معني المحبة إلي درجة كبيرة وعلي الرغم من هذا فإن (الحدود لا تزيدها إلا خفاء) (٦) فكل يصف حالته وإدراكه الشخصي ، أما أن يستقصي الوصف فيها فهذا محال ، وذلك لأن

(١) ابن تيمية - قاعدة في المحبة ، ص ١٩٧ - ضمن - جامع الرسائل الكبرى - المجموعة الثانية - تحقيق د/ محمد رشاد سالم - الطبعة الثانية - مطبعة المدني ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٦ .

(٣) سورة البقرة (١٦٥) .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٩٧ .

(٥) ابن تيمية - الحقل والنقل ١١ / ٥٢٦ .

(٦) شرح العقيدة الطحاوية ، لعلي ابن أبي العز (مكتبة الدعوة وشباب الأزهر) ص ١١٦ ، مدارج السالكين ٨ / ٣ .

محبة الله صفة من صفاته (ليس لها حد تنتهي إليه) (١) والمحبة كلما ازداد
الله حباً كان الله له أشد حباً فالمحب — وإن استطاع في نفسه — وصف حبه
— لما استطاع وصف حب الحق له لعظمته وقوته . وكان رسول الله ﷺ
يقول (سبحانك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك) (٢) ذلك
لأنه تعالى يحيط ولا يحاط ، وقد حدث الخلط في حقيقة المحبة ، فصار كل
فريق يفسرها حسب هواه ومعتقده ، إلي درجة أنه إذا ذكر هذا المصطلح .
فلا يكاد يذكر معه سوي تلك العلاقة الحسية بين الرجل المرأة ، فضلاً عن
تأويل بعض الفرق للمعني القرآني وهؤلاء الذين أنكروا حقيقة المحبة لا
يمكنهم إنكار لفظها ، لأنه جاء في القرآن الكريم والسنة علي الحقيقة لا
المجاز والتأويل ، فبين ابن تيمية في كثير من كتبه أن الإجماع وكتب اللغة
علي أن محبة الله تعالى من العباد حقيقة لا مجاز فيها فقال : (فلم أن دلالة
الإجماع علي أن هذا ليس مجازاً بل حقيقة ، فالتعبير بمحبة الشيء عن
مجرد محبة طاعته لا عن محبته نفسه أمر لا يعرف في اللغة لا حقيقة ولا
مجاز فحمل الكلام عليه تحريف محض) (٣) وليس معني هذا أن ابن تيمية
ينكر المحبة الطبيعية فإن القرآن قد قرره بما لا يدع مجالاً لأجد في إنكاره
ولكنه يوظفه في طاعة الله تعالى ، وإلا فهو حب باطل زائل والمحبة كما
قلنا من قبل محبة فطرية قال تعالى " فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا " (٤)
وهي كما يري ابن تيمية أن الفطرة هي محبة الله تعالى وهي القوة التي
أودعها الله في النفس وبها نعرف الله ونشهد به ونحبه ونخلص له في عبادته
، وأن محبة الله فطرية في النفس ، وقد ساق بن تيمية الأدلة التي يرجح بها

(١) ابن تيمية — قاعدة المحبة ، ص ٢١٠ .

(٢) الحديث (لا أحصي ثناءً عليك) سنن أبي داود ، ج ١ ، ص ٢٣٢ ، رقم ٨٧٩ .

(٣) ابن تيمية — التحفة العراقية — ص ٧٦ .

(٤) سورة الروم (٣٠) .

رأيه في السنة النبوية بعد أن استدل علي ذلك من القرآن بآية الميثاق وغيرها فيقول: (١) " والنبي ﷺ شبه اللبن بالفطرة لما عرض عليه اللبن والخمر فقال له جبريل عليه السلام — أصبت الفطرة ولو أخذت الخمر لغوت أمتك " فإذا كان الطفل مفطوراً لا محالة أن يتعرف طريق ثدي أمه ، فكذلك هو مولود علي أن يعرف الله والمعرفة ضرورية لا محالة إذا لم يوجد معارض ، فإذا أمكن في الإنسان أن يحب الله ويعبده فيخلص له الدين كان فيه قوة تقتضي ذلك ، وقد ثبت أن في النفوس قوة المحبة والذل له ، فالإقرار بالصائع بدون عبادته بالمحبة له لا يكون الإقرار نافعاً ولو لم تكن محبة الله فطرية في النفس لكانت النفس قابلة لها ولضدها علي السواء وهذا ممتع ، ولا بد لهذه الفطرة والخلقة من قوت وغذاء يمدّها بنظير ما فيها مما فطرت عليه علماً وعملاً ، ولهذا كان تمام الدين بالفطرة المكملّة بالشرعية المنزلة وهي مأدبة الله كما قال النبي ﷺ في حديث ابن مسعود : " إن كل أدب يحب أن تؤتي مأدبته وإن مأدبة الله هي القرآن " وقد كان ابن تيمية يري أن المحبة أصل الإيمان والإيمان ليس شيئاً محسوساً وإن كان يزيد وينقص وإنما هو في القلب قال ﷺ (الإسلام علانية ، والإيمان في القلب) أي أن الحب أمر لطيف تتبني عنه لوازمه (واللازم لا يدل إلا إذا كان ملزماً) (٢) وتتجلى هذه اللوازم في الأعمال فإن الأعمال بها يتميز الخبيث المنافق من الطيب المحب الصادق وعلي ذلك ، فلا يستطيع المرء تحديد معني الحب القلبي بحد معين فهو (أمر غيبي لا يضبطه إلا الله) (٣) وإنما

(١) ابن تيمية — العقل والنقل ٤ / ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) ابن تيمية : الإيمان / ٢٠٠ ، دار عمر بن الخطاب للطباعة والنشر والتوزيع — الإسكندرية — بدون تاريخ .

(٣) ابن تيمية : الإيمان الأوسط ١١٠ — ١١١ ، منهاج السنة ٣ / ١٠١ ، ط ١ / تحقيق د/ محمد رشاد سالم — مكتبة العروبة — مطبعة المنني ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .

يتحدد ويظهر بالآثار العملية التي هي مقياس الزيادة أو النقص في المحبة أو عدمها ، وهذه الآثار لابد أن توزن عندئذ بميزان العبودية لله تبارك وتعالى .

أثر محبة الله تعالى للعبد :

تظهر محبة الله تعالى للعبد ، من خلال أفعال العبد تجاه الله سبحانه وتعالى ، وتلك الأفعال لا تخرج عن قاعدة الامتثال للأمر والنهي الإلهي بالإيمان بالله تعالى وسلامة الاعتقاد في ذاته وصفاته وأسمائه العلى والإيمان بالمحكم والمتشابه ، ثم يأتي تأديب الجوارح بالعبادات وتهذيبها بحسن الخلق وأسمى التخلق هو التخلق بأخلاق النبي ﷺ في أفعاله وأحواله وسكناته وحببه وحب آل بيته الكرام وبر الوالدين وبر الناس وصلة الأرحام وحسن التوكل على الله تلك الأفعال إن صدقت أحب الله عبده ويظهر أثر ذلك على العبد في محبة العباد له ، ولعل الدراسات المتعددة والكثيرة التي تركها لنا الرعيل الأول من الزهاد الأوائل وكذلك المتصوفة لدليل على ذلك فالباحث والمحقق يجد أن علماء الأمة قد جمعوا للقيم الأخلاقية في مصنفات شئ لم تقتصر على الفقه أو أصوله بل امتدت إلى علم الحديث الذي يقوم على تحرى الصدق واليقين للتحقق من صحة أقوال النبي ﷺ فيما يعرف بالحديث الصحيح لأن عليه تبنى الأحكام وكذلك ظهر إسهام جيل آخر من المتكلمين والفلاسفة في مجال التعويل على الذوق العقلى وظهر ذلك جليا فيما صنفه ابن سينا في ذلك الموضوع المحبة هنا يختص بكتابات السلف الصالح والزهاد الأوائل وكثير من المتصوفة فالباحث المحقق يجد أن نصوص الكتاب والسنة واتفاق السلف ومشايخ الطريقة من الصوفية والمتكلمين أمثال القشيري (ت ٤٦٥ هـ) والغزالي (٥٠٥ هـ)

وأبي طالب المكي (ت ٣٨٦ هـ) " أن الله تعالى يحب ويحب " (١)
 وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل وهو أصل الأعمال
 الدينية وغيرها وأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله ، كما أن
 أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله " فإن التصديق بالمحبة هو
 أصل الإيمان ، وهو قول وعمل " (٢) كما قد بينت من قبل علي ما
 أثبت ذلك وقرره ابن تيمية في غير ما موضع .

فعندها تتلاشي الذات أمام عظمة الله تعالى وتتجه محبة النفس
 إلي حب الله فتحب بحبه وتبغض بحبها لله ما يبغضه الله تعالى .
 عندها تصبح لهذا الحب آثار ودلائل وأمارات قد نالها العبد بشرف
 حب الله تعالى له ويحظي بسعادة الدارين ويتحقق بحب الله له فتظهر
 له هذه المحبة فإن الحكم فيها أيضاً لظهور (النعم المنبئة عن رضاه
) (٣) حتي يرى في الأرض مقبولاً مهدياً وتلقى محبته في قلوب
 العباد .

روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ -
 قال : " إذا أحب الله العبد نادي جبريل : إن الله يحب فلاناً فأحبيه ،
 فيحبه جبريل ، فينادي جبريل في أهل السماء : إن الله يحب فلاناً ،
 فأحبهوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض " (٤)

(١) ابن تيمية - الملوك ، ص ٦٩٨ (الجزء العاشر من الفتاوي الكبرى)

(٢) ابن تيمية - قاعدة في المحبة ، ص ٢٣٥ .

(٣) ابن عطية - المحرر الوجيز ، ١٣٥ / ٥ ، تحقيق المجلس العلمي بفاس - وزارة الأوقاف
 والشئون الإسلامية - المغرب .

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (١٢٩ / ٣) والبخاري (بدء الخلق : ٦) ، (أدب : ٤١) ، (توحيد :
 ٣٣) ومسلم (اللبر : ٥٧) واحمد (٢ / ٢٦٧ ، ٣٤١ ، ٤١٣ ، ٤٨٠) (٥ / ٢٠٩ ، ٢٦٣)
 والترمذي (تفسير سورة مريم : ٧) .

وقد اتضحت هذه المحبة من الله تعالى لرسوله ﷺ لما في القلوب من الحب والإجلال فأنشدوا يرددون جميعاً — يا رسول الله (كل مصيبة بعدك تهون — بل كل مصيبة بعدك تهون إذا سلمت من عطب)

وقد حسن الجزع له وسلم عليه الشجر والحجر ^(١) ﷺ

وظهرت محبة الله تعالى أيضاً لعباده الصالحين المتقين علي مر الأزمنة .

يقول سهل ابن أبي صالح (كنا بعرفة فمر عمر بن عبد العزيز وهو علي الموسم فقام الناس ينظرون إليه ، فقلت لأبي : يا أبت إنني أرى الله تبارك وتعالى يحب عمر بن عبد العزيز ، قال : وما ذاك ؟ قلت له : لما له من الحب في قلوب الناس ^(٢) وإن محبة الله لعبادة ومحبتهم له أثر لفعل الحب الإلهي في عبادته . وإن حب العبد لربه وإن كان أمراً غيبياً لا

(١) عن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ قال : (إنني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث ، وإنني لأعرفه الآن) (مسلم ٥٨ / ٧ — ٥٩) كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (وذكره الطبري في تفسيره ٢ / ٢٤١ ط . المعارف — وهو في مسند جابر بن سمرة رضي الله عنه في المعتمد (ط — الحلبي) ٥ / ٨٩ ، ٩٥ ، ١٠٥ ، مسند الدارمي ١ / ١٢ .
وأيضاً حديث حنين الجذع — وطرقه صحاح مشورة .

روى البخاري في صحيحه ٥ / ١٩٥ — كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام — عن ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما : (كان النبي ﷺ يخطب إلي جذع

وسنن الترمذي (شرح ابن العربي) ١٣ / ١١١ ، كتاب المناقب — باب حدثنا عبد بن يعقوب الكوفي وفي المعتمد (ط — المعارف) الأرقام ٢٢٣٦ ، ٢٢٣٧ ، ٢٤٠٠ ، ٢٤٠١ ، ٢٤٣٠ ، ٢٤٣٢ ، ٥٨٨٦ ، تفسير الطبري ٢ / ٢٤١ ، البداية النهاية ٦ / ١٢٥ — ١٣٢ ، فتح الباري ٦ / ٤٤٣ .
(٢) مسلم : ١٨٤ / ١٦ — ١٨٥ ، كتاب البر والصلة — باب إذا أحب الله عبداً .

يعلمه سوى الله عز وجل ، فإنما تدل عليه دلالة ظاهرة تتمثل في جمال
العبودية له تعالى بحيث " يكون الدين كله لله " (١)

"العشق في مقام المحبة"

والسؤال الذى يطرح نفسه في هذا الأمر هو هل يصح العشق
في مقام المحبة ؟ إن ابن تيمية يشدد إنكاره على الصوفية وغيرهم
وذلك لإطلاقهم لفظه العشق في مقام المحبة ، ويرى أن هذا اللفظ
غير إسلامي ، بل هو فلسفي محض وينقل في ذلك رأي ابن جرير
الطبري في كتابه المسمى (التبصير) الذي كتبه إلي أهل طبرستان
في اختلاف عندهم فقال " وإن مما نعتقده : ترك إطلاق تسمية (
العشق) علي الله تعالى ، وبين أن ذلك لا يجوز لاشتقاقه ولعدم
ورود الشرع به - وقال ابن جرير فيما ينقله ابن تيمية : أدني ما فيه
أنه بدعة وضلالة وفيما نص الله من ذكر المحبة كفاية " (٢) ولذا فإن
ابن تيمية ينكر هذا اللفظ علي الغزالي والديلمي الذي لا يري (
لانكاره وجهها) (٣) ويسوي بين المصطلحين العشق والمحبة ، ويرى
أنه لا فارق بينهما إلا في الشهرة ، يقول الديلمي (هما اثنان لمعني
واحد إلا أنا وجدنا اسم المحبة أشهر وأمضي فهو مجمع علي
جوازه) (٤) وإن كان الديلمي يتابع غيره في ذلك إلا أنه يعرف حقيقة
الفرق ولكن الإمام ابن تيمية يحدد الاختلاف في هذا اللفظ بوضوح

(١) ابن تيمية - قاعدة في المحبة ، ص ٢٢٩ .

(٢) ابن تيمية - الفتوي الحموية الكبرى ، ص ١٤٠ ، ضمن مجموعة (نفائس) بتحقيق وتعليق
(محمد حامد الفقي) مكتبة أنصار السنة المحمدية ، بدون تاريخ - بدون طبعة .

(٣) الديلمي - عطف الإلف المألوف علي اللام المعطوف - المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية -
القاهرة ، حققه وقدم له (ج - ك فادية) بدون تاريخ .

(٤) المرجع السابق .

حينما أعلن أن الناس في هذا متنازعون فمن أنطلق هذا اللفظ في حق الله " ما روي عن عبد الواحد بن زيد ^(١) فيما يؤثره عن أحد أنبياء الله أنه قال : (عشقني وعشقتني) وقال هؤلاء : العشق هو المحبة الكاملة التامة ، ويرى ابن تيمية أنه لو قيل : إن العشق هو منتهى المحبة أو أقصاها أو نحو ذلك ، فهذا المعنى حق من العبد ، فإنه يحب ربه منتهى المحبة وأقصاها والله يحب عبده ^(٢)

أما المنكرون لإطلاق هذا اللفظ في باب المحبة فإن ابن تيمية يرى أن هذا اللفظ ليس " مأثوراً عن أئمة السلف " ^(١) والذين أنكروه لهم من جهة اللفظ مأخذان ومن جهة المعنى مأخذان :

" فاما من جهة اللغة "

الأول : أن هذا اللفظ ليس مأثوراً عن السلف وباب الألفاظ والصفات يتبع فيها الألفاظ الشرعية فلا نطلق إلا ما يرد به الأثر ويرون أن هذا من الإسرائيليات التي لا يجوز الاعتماد عليها في شرعنا ، فإن ثبوت مثل هذا الكلام عن الله لا يعلم إلا من جهة نبينا ﷺ وذلك غير مأثور عنه وقد قال النبي ﷺ : " إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، فإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه وإما يحدثوكم بحق فتكذبوهم " ^(٢) وهذا الوجه يقتضي الامتناع من الإطلاق إلا عند الجزم بتحريمه في جميع الشرائع .

الثاني : أن المعروف من استعمال هذا اللفظ في اللغة إنما هو في محبة جنس النكاح وهذا يقوله الضالون من الاتحادية والحلولية ومن شاكلهم

(١) البصري - صوفي وواعظ لحق الحسن البصري وغيره - متروك الحديث (ت ١٧٧هـ) له ترجمة في العبر ١ / ٢٧٠ ، شذرات الذهب ١ / ٢٨٧ ، ميزان الاعتدال ٢ / ٦٧٢ ، لسان الميزان ٤ / ٨٠ ، الحلية ٦ / ١٥٥ - ١٦٥ ، للطبقات الكبرى ١ / ٣٩ - ٤١ .

(٢) ابن تيمية - قاعدة في المحبة ص ٢٣٩ .

، فمن زعم أن الله يحب أو يعشق وأشار. إلي هذا المعني ، فهو أعظم كفراً
من اليهود والنصارى (٣)

” أما المأخذان المعنويان ”

الأول : فقد قيل إن العشق فساد في الحب والإرادة لأنه إفراط في
الحب حتي يزيد علي القصد والواجب ، وهذا المعني ممتنع في حق الله
تعالى .

الثاني : قيل إن العشق هو فساد في الإدراك والتخيل والمعرفة وهذا
لا يجوز في حق الله تعالى لأنه مقتس منزّه عن نقص أو خلل وما قذفه في
قلوب محبيه من أنوار معرفته ينفي هذا ، فليست محبتهم إياه من اعتقاد
فاسد (٤) .

وقلب المؤمن لا يعشق مع فساد الإدراك ذلك لأن فيه
صارفين يصرفانه عن العشق :

الأول : الإنابة إلي الله ، والثاني : الخوف منه تعالى والعشق
إنما يبتلي به المشركون وذلك لنقص التوحيد في قلوبهم ، قال تعالى
” كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ” (٥)
فبين الحق أن امرأة العزيز لشربكها ابتليت بالعشق (٦) أما يوسف

(١) ابن تيمية - قاعدة في المحبة ص ٢٣٩ .

(٢) سنن أبي داود ٣ / ١٤٣٣ كتاب العلم - الممسند (ط - الحلبي ٤ / ١٣٦ - البخاري ٣ / ١٨١
كتاب الشهادات ، ٦ / ٢٠ - ٢١ كتاب التفسير ، ٩ / ١١١ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ٩ /
١٥٧ كتاب التوحيد وضعف الألباني الحديث في ” ضعيف الجامع الصغير وزيادته ” ٥ / ٩١ .

(٣) ابن تيمية ، قاعدة في المحبة ، ص ٢٤١ .

(٤) ابن تيمية - قاعدة في المحبة ، ص ٢٤٢ .

(٥) سورة يوسف (٢٤)

(٦) ابن تيمية - العقل والنقل ، ج ١٠ / ١٣٧ .

عليه السلام فلكمال توحيدِهِ نجاه الله منها " إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ " وقد تحقق يوسف عليه السلام بالعبودية لله تعالى إذ هي (غاية الذل لله ، بغاية المحبة له) (١) فاس تطاع بهذا دفع هوي زوجة العزيز وبهذا جعل تيمية من العبودية لله محبة خاصة ، بل هي أسمى أنواع المحبة ، حَيْثُ تُمَثِّلُ نِزَوَاتَهَا لِمَا فِيهَا مِنْ تَحْقِيقِ مُشْهَدِي الْأَلُوْهِةِ وَالرَّبُّوبِيَّةِ قَالَ تَعَالَى " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ " (٢)(٣)

"علامات أهل المحبة"

بعد أن بينت رأي ابن تيمية في — لمن تكون المحبة ؟ وفيمن تتحقق أرقى صورها بقي توضيح السبيل المستقيم التي عرج عليه ابن تيمية إلي ربه جل وعلا والتي يمكن التعرف عليها من خلال رأيه في :

١- الاتباع ٢- الغيرة ٣- الجهاد - الخلعة

١- " الاتباع "

فالمحبة التامة لله تعالى شرطها المتابعة بنص الآية الشريفة ، قال تعالى : " قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ " وإذا كانت العبودية لله تعالى تجمع (كمال المحبة لله ، وكمال الذل له) (٤) فإن هذا الذي يصبح بمثابة الخضوع لله ، والاستسلام له وحده يمنح القلب كما — قلنا من قبل — الحرية في مواجهة غير الله (فكلما

(١) العبودية — لابن تيمية ، ص ٩ ، ٥٣ — توزيع — المكتبة القيمة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

(٢) المرجع السابق ص ٩ .

(٣) فاتحة الكتاب (٥)

(٤) ابن تيمية — مجموع الفتاوى الكبرى ج ١٨ / ٣٢٧ .

ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية ، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حباً وحرية عما سواه (١) ولهذا ينبغي التفرقة بين المحبة المقترنة بالتوحيد والخالصة لله تعالى علي متابعة رسوله ﷺ ، وبين المحبة التي تتضمن نوعاً من الشرك وليس أصحابها متابعين للرسول ، وقد قال ﷺ (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار) (٢) وقد اشتمل هذا الحديث علي قواعد ثلاث ، بهن جاءت الحكمة ، ليعيش من أقامها جنة الدنيا بحلاوة الإيمان ولذته .

القاعدة الأولى

تكميل المحبة ، : بأن يكون الله ورسوله أحب إلي العبد مما سواهما ، فلا يقنع بما فطر عليه من حبهما ، فالمشركون فيهم تلك المحبة ، وإنما بالفطرة المنزل يستكمل الفطرة التي خلق عليها ، فيكون عند (الحق بلا خلق) (٣)

القاعدة الثانية

وهي تفريغ المحبة لله وحده ، فيحب المرء لا يحبه إلا الله فإذا فقد ذلك (كان الله هو المحبوب لذاته) (٤) وعندئذ تكون رؤية المحبين قوية للحب الإلهي ويصبح كل منهما جاذباً للآخر نحو الحق

(١) ابن تيمية - السلوك ص ١٩٣ ، العبودية ، ص ٥٣ .

(٢) رواه البخاري مسلم ومن ابن ماجه .

(٣) ابن تيمية - الفتاوى - ج ١٠ ، ص ٣٣٦ .

(٤) ابن تيمية - مجموعة الرسائل الكبرى ، ١ / ١٥٠ .

، وهذا ما يعرف بالتخلية قال رسول الله ﷺ (قل أسلمت وجهي إلى الله وتخليت) (١)

قال بعض الحكماء : " ما تلذذ المتلذذون بشيء ألد من ذكر الله تعالى ومحبتة فالمحب لله عز وجل لا يجد مع الحب لله عز وجل شيء لذة ولا يغفل عن ذكر الله عز وجل " (٢)

وبهذه التخلية وهذا الذكر الدائم يتحقق له الفناء المجمع للبقاء إذ بالتخلية يتفرغ العبد مما سوى الله ، وبالتالي يملأ القلب بالحق وهذا هو تحقيق (لا إله إلا الله) لذا فقد تبرأ الخليل — كما تبرأ نبينا — صلوات الله عليهما وتسليماته — من كل محبوب سوى الله تعالى — قال تعالى " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ " (٣)

القاعدة الثالثة

دفع الضد ، فيكره العبد (ضد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار) (٤) فبالقاعدة الأولى جعل العبد حوله تبعاً لما جاء به النبي ﷺ فكان الحب وبالثانية لما احب متحداً مع مراد الحق ، وجاءت الثالثة كي تثبت الفؤاد على ما تحقق به من توحيد الحب للمحبوب الأعظم فحصلت لهم الخلقة .

(١) رواه النسائي ٥/٥ / كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة .

(٢) المجاسبي / القصد والرجوع إلى الله ، ص ١٠٣ .

(٣) سورة الزخرف (٢٦ ، ٢٧)

(٤) ابن تيمية / العبودية ، ص ٦٦ .

الغيرة سمة من أهم سمات المحبين لله تعالى فهي سبب شدة المؤمنين علي الكفار ، كما أن المحبة مبعث الرحمة والرفقة بينهم قال تعالى " أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ " (١) وقال " أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ " (٢) ومن أجل الغيرة حرم الحق الفواحش ما ظهر منها وما بطن قال ﷺ (تعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغير مني ، ومن أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه القدر من الله ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين) (٣) وهي نوعان :

الأول : نوع يحبه الله الثاني : نوع يبغضه الله تعالى

قال ﷺ (إن من الغيرة ما يحبها الله ومن الغيرة ما يكره ن فالغيرة التي يحبها الله في الريبة ، والغيرة التي يكرهها الله التي في غير ريبة) (٤) فغيرة المؤمن أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه والمقصود هنا التنبيه هنا علي نوع الغيرة التي يحبها الحق تبارك وتعالى وهذا خلاف ما ظن بعض الصوفية عندما خلطوا بين الغيرة لله والغيرة علي الله — فعطلوا العبودية بذلك — وشبهوا ذلك بالمحسوب البشري وقد جاء في الرسالة عن الشلبي (ت ٣٢٠ هـ) يقول (المحبة أن تغار علي المحبوب أن يحبه مثلك) (٥)

(١) سورة المائدة (٥٤)

(٢) سورة الفتح (٢٩)

(٣) فتح الباري ١٣ / ٣٩٩ كتاب التوحيد .

(٤) ابن ماجه ١ / ٦٤٣ — ورواه احمد وابن حبان .

(٥) الرسالة التشريعية ٢ / ٦١٥ .

وقد رفض ابن تيمية هذا وقال عنه إنه (تعريف فاسد جداً) (١) وذلك لما فيها من تناقض مع المحبة الفطرية التي من شأنها حب الخير لجميع البشر لأن الحب القائم علي الغيرة المحبوبة من أهم خصائص الحب الإلهي وبها يريد المحب أن ينتشل الخلق من برائن وأوساخ المعاصي والآثام يقول ابن تيمية فشأنه (أن يحب العبد أن جميع المخلوقات يشركونه في ذلك) (٢) وذلك مصداقاً لقول النبي (لا يؤمن أحدكم حتي يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (٣)

فبالمحبة الأولي يرجو المؤمن للكافر الدخول في الإسلام كي يذوق حلاوة ما يلتذ به المؤمن من حلاوة الإيمان ، وبالمحبة الثانية يرجو المؤمن من ربه استمرار المسلم علي ما هو عليه فلا يسلبه الإيمان وحلاوته قال تعالى " رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا " (٤) بل يطلب الزيادة قال تعالى " وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً " (٥) .

فإذا لم تتوفر هذه الشروط في العبد ، فقد نقص إيمانه وصار من الحاسدين يقول النووي (فالشخص متي لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه صار حسوداً) (٦)

يقول ابن جرير الطبري (المؤمن خير للمنافق من المنافق للمؤمن ، يرحمه المؤمن ولو يقدر المنافق من المؤمن علي مثل ما يقدر المؤمن عليه لأباد خضرأه) (١)

(١) ابن تيمية — الاستقامة ٦٣ / ٢ .

(٢) المرجع السابق ، ٦٣ / ٢ .

(٣) رواه الشيخان .

(٤) سورة آل عمران (٨)

(٥) سورة طه (١١٤)

(٦) النووي — شرح الأربعين النووية ، ص ٣٩ ، شركة الشمري — بدون تاريخ .

وإذا فهم ما تقدم فيمكن القول بأن هؤلاء الذين يتهمون ابن تيمية بالقسوة والغلظة والشدة وجفائه وأنه لا يعرف المحبة مخطئون في زعمهم ، ذلك لأنهم لم يفهموا معني الحب الإلهي علي حقيقته ، وكيفية الوصول إلي كفيته تبعاً للمنهج السلفي وإنما اختلطت عليهم السبل وفرقتهم الأهواء ومن هؤلاء الذين هاجموا ابن تيمية ولم يفهموا مقاصده من واقع فكره السلفي . ويعدونه خصماً للصوفية والتصوف — ومن هؤلاء جولد تسيهر وماسينيون — (٢)

فالعاطفة التي يمكن أن نصف بها ابن تيمية إنما هي قوة العبودية لله تعالى والتي أوصلته إلي ربه ، فصار لا يخشي في الحق لومة لائم وتبدو تلك العاطفة الجياشة عنده من وصف أعدائه له ، فقاضي المالكية ابن مخلوف يقول واصفاً له (ما رأينا مثل ابن تيمية حرصنا عليه فلم نقدر عليه ، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا) (٣) فهي هم يصفونه بالحب من حيث لا يشعرون وقد اجتمعت فيه صفتان يحبهما الله تعالى وهاتان الصفتان من أخلاق المحبين المحبوبين قال "وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (٤) وبهذا يتضح أن الدين الإسلامي هو دين الحب والود ، وذلك بعكس ما يدعيه الغالون من المستشرقين والنصارى من أن الدين الإسلامي دين حرب وقتال .

(١) تفسير الطبري — ١٥١ / ٧ .

(٢) من الباحثين الذين يعدون ابن تيمية خصماً للصوفية والتصوف : جولد تسيهر في كتابه (الحقيقة والشرعية) ولويس ماسينيون في دائرة المعارف الإسلامية (تصوف)

(٣) ابن كثير — البداية والنهاية ١٤ / ٥٤ ، ١٩٣٢ م (بنفقة مطبعة السعادة والمطبعة السلفية ومكتبة الخانجي)

(٤) سورة آل عمران (١٣٤)

إن الأصل في الجهاد هو نص الآية الكريمة التي يقول الله تعالى فيها : " قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ " ^(٢) وتفسير الآية عند ابن تيمية أنها " تتضمن الوعيد الشديد لمن يفضل أهله وحاله علي الله والرسول والجهاد ، فأصبح المؤمن الحق هو الذي يجعل محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله في المرتبة الأولى " ^(٣) والمحبة في نظر الشيخ ليست شعوراً سلبياً ساكناً لكنها تنطوي علي حركة وفاعلية (ومعلوم أن الحب يحرك القلب ، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوب ^(٤)) فإذا كان الحب يحرك إرادة القلب اتضح أن الجهاد ما هو إلا ثمرة الغيرة ، وبها يتحقق فالغيورون المحبون تتحرك فيهم القلوب والأيدي ، والألسنة جهاداً ومنعاً من انتهاك حرمان الله ، كما أنها تتحرك منفذة ما يحبه الله ، واجتماع ذلك هو (دليل المحبة الكاملة) ^(٥) فمن لم يكن

^(١) جاءت لفظة الجهاد بمشتقاتها في القرآن الكريم (٤١) مرة وإن أول آية نزلت تشرع للمؤمنين الجهاد في سبيل الله قوله تعالى (أن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله علي نصرهم لقدير) الحج : ٣٩ .

جاء في تفسير ابن كثير — عن ابن عباس ومجاهد وعروة ابن الزبير وزيد ابن أسلم ومقاتل ابن حيان وقتادة وغيرهم هذه أول آية نزلت في الجهاد وقوله تعالى (وإن الله علي نصرهم لقدير) أي هو قادر علي نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته (. انظر ابن كثير — تفسير القرآن العظيم — ج ٣ ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، دار الخير — ط ٢ ، ١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م — بيروت .

^(٢) سورة التوبة (٢٤)

^(٣) ابن تيمية — السلوك / ٧٥١ .

^(٤) المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

^(٥) السابق ، ص ٥٧ .

فيه واع إلي ذلك مات منافقاً قال صلي الله عليه وسلم (ومن لم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو مات علي شعبة من نفاق) ^(١) وروي عن أبي هريرة أنه قال (من لقي الله بغير أثر من الجهاد لقيه وفيه ثلثة) ^(٢) فإذا كانت الحياة بغير محاب الله كانت مناقضة لكمال العبودية (فإن كل من أحب شيء دون الله لغير الله ، فإن مضرته أكثر من منفعته وعذابه أعظم من نعيمه) ^(٣) فحب الله لذاته ترادف تماماً البحث عن السعادة في تأليهه وعبادته وحده ، وتنفيذ أوامره (لأنها قرّة العيون) ^(٤) يقول رويم البغدادي (ت ٣٠٣هـ) في مقام المحبة (من أحب لعوض نغصّ العوض إليه محبوبه) ^(٥)

وبهذا عندما يتفق العمل مع المحبة لله والجهاد في سبيله — يصبح حب الله لذاته معناه الدخول في طاعته والعكوف علي عبادته ، فإذا امتلأ القلب حباً له خضع لا محالة (فيتبعه خشوع الجوارح) ^(٦) وما دامت أوامر الرب تعالي تقتضي الجهاد فسيظهر فيها المحب الحقيقي ، الذي يبذل الروح في سبيل محبوبة.

وبهذا " يتبين أن محبة الله توجب المجاهدة في سبيله قطعاً ، فإن من أحب الله وأحبه الله أحب ما يحبه الله ، وأبغض ما يبغضه الله ، ووالي من يواليه الله وعادي من يعادي الله ، لا تكون محبة قط إلا وفيها ذلك بحسب قوتها وضعفها ، فإن المحبة توجب الدنو من المحبوب ومحابه ، والبعد عن مكروهاته ، ومتي كان مع المحبة نبذ ما يبغضه المحبوب فإنها تكون

(١) الحاكم في المستدرک ٧٩ / ٢ و مسلم ١٣ / ٥٦ ، كتاب الإمارة .

(٢) المرجع السابق ٧٩ / ٢ و مسلم ١٣ / ٥٦ كتاب الإمارة .

(٣) ابن القيم ، طريق إلهجرين ، ٧٣ ، ٧٠ ، مكتبة إمامة الإسلامية / القاهرة .

(٤) المرجع السابق ص ٧٣ .

(٥) السلمي — طبقات الصوفية — ص ١٨٤ ، تحقيق د/ أحمد الشرباحي — مطبعة الشعب .

(٦) ابن القيم — الروح ص ٢٣٢ — مكتبة وهبة — بدون تاريخ .

تامة * (١) وقد علم المؤمن أن الجهاد لا بد أن يلزمه في حياته كلها وسوف يشاهد بنفسه ما يصيبه من أذى الغير وذلك لأنه لا بد أن يلاقي الأذى من (جهاده في سبيل الله وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وإقامة دين الله وإعلاء كلماته) (٢) وإذا كان ابن تيمية أحد مشايخ السلف الراسخين في العلم فالحق أن للمتتبع للفكر السلفي يلاحظ مبدأ الجهاد لإعلان سلطان الله تعالى ترسخ في عقول شيوخ المدرسة ونفوسهم لأنهم أخلصوا في العكوف علي التراث الإسلامي وتعمقوا فيه ودرسوه جيداً ، فجاءت عنايتهم انعكاساً لما عرفوه وتعلموه وقلما يخلو أحد مؤلفات السلفيين من ذكر الجهاد بما في ذلك كتب متصوفيههم وزهادهم ، وقد اتخذ ابن تيمية من الجهاد دليلاً حقيقياً لمحبة الله لأن الوصول إلي مرتبة الجهاد واليقين ، والتحقق بها ليس أمراً هيناً ، إلا لمن من الله عليه ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ودخول الحقيقة الإيمانية للقلب يحصل شيئاً فشيئاً ، فإذا لم يتعرض للعبد للفيض الدائم ، ويثبت ما حصل (لوجدته مرتاباً إذا شكك شك ، وإن أمر لم ياتمر) (٣) وإذا فإنه لما كانت للنفس البشرية هي للمخاطبة والمكلفة ، وللبدن آلتها فإن ابن تيمية يذيب الأنفس المؤمنة جميعها ، ويصهرها حتي تكون كالنفس الواحدة (فكل مؤمن يمثل عضواً قائماً بها) (٤) (وروحاً من أرواح النظام في خلقه) (٥)

وقد توجه ابن تيمية إلي علاج النفس البشرية ، وذلك عن طريق الحب في الله والبغض في الله ، إذ الحب هو الأداة التي نستطيع بها أن نستشف ونكتشف عوامل الضعف والخلل الاجتماعي إذا أراد أن يأخذ طريقه

(١) ابن تيمية - قاعدة في المحبة ، ص ٢٧٥ ..

(٢) ابن القيم - مدارج السالكين ، ج ٢ ، ص ٣٢١ .

(٣) ابن تيمية - الإيمان ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٤) ابن تيمية - الرسائل والمسائل ، ٥٩ ، ط ١ ، المنار .

(٥) تفسير المنار ٣ / ٢٣٦ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ م . لمحمد رشيد رضا .

إلي نفوس المسلمين ، وذلك بالوقوف مع تلك الحملات الروحية الكامنة في نصوص الوحيين ، والتي تمثل نوراً عظيماً ينير النفس ، فإن ما حدث في داخل النفس الإنسانية لا سبيل إلي المادية لأن تقف عليه ، وإنما السبيل الوحيد هو القوة الروحانية التي تدق أبواب القلب النائم وتوقظه ، وتحيي الأفئدة لتسرع في سيرها وإذا (كانت الجنة ترضي منك بأداء الفرائض والنار تتدفع عنك بترك المعاصي ، فالمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح)^(١) لذا فإن ابن تيمية يبين أن دخول الجهاد القلب ، وثباته فيه ، والقيام بما فيه من حب تام ، لا بد وأن يتحصن العبد له بسلاحين ، بهما يدرأ الشبهات ، ويدفع الريب والشهوات ، وبدونهما ينتقل العبد إلي نوع من النفاق ، وهذان السلاحان هما :-

أ- علم القلب ب- قوة الحب

فبهما الطمأنينة ، واستقرار الجهاد ، ولذلك فإن ابن تيمية يعلل تزعزع الناس وريبهم وعدم قدرتهم علي الجهاد بأنه ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ، ما يدرأ الريب ، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه علي الأهل والمال)^(٢) ولذلك فقد توعدهم الحق تعالى بقوله " قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ " ^(٣) وقد كان في رعونات الأنفس عند الجبريين ومن تبعهم من المتصوفة أنهم قالوا (إن العارف لا ينكر منكراً لاستبصاره بسر الله في القدر) ^(٤) وهذا القول يظهر

(١) ابن القيم — الفوائد ص ٧٢ — المكتبة القيمة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٨٧ م .

(٢) ابن تيمية — الإيمان ، ص ٢٠٧ .

(٣) سورة التوبة (٢٤)

(٤) ابن القيم — مدارج السالكين ، ج ٣ ، ص ١٢٣ .

فساده بوضوح لأن الرسل الذين بعثهم الله كانوا جميعاً (قائمين بالإنكار علي أممهم أشد الإنكار)^(١) فالجهاد إذاً هو مقصود الشريعة وهو يشمل الإنكار باليد واللسان وبالقلب كذلك وهذه الدعوة ليست مقصورة علي المسلمين فيما بينهم وإنما هي دعوة للناس جميعاً لأنهم كما يقول ابن تيمية (أمروا بكل معروف ، ونهوا عن كل منكر لكل أحد)^(٢) لذا فإن ابن تيمية يعرف الجهاد بأنه (بذل الوسع — وهو كل ما يملك من القدرة — في حصول محبوب الحق ، ودفع ما يكرهه الحق ، فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان تركه دليلاً علي ضعف محبته لله ورسوله في قلبه)^(٣)

وابن تيمية قد وضع المؤمن في شخصية المجاهد لأن المؤمن يجب أن يتحمل الصعاب في سبيل الله ولم يكن هذا من ابن تيمية ابتداءً منه وإنما هو معني قرآني استنبطه ابن تيمية وحاول تطبيقه قدر الطاقة ، (كما أنها لم تكن صيحة مؤقتة أملت عليها ظروف العصر)^(٤) حيث ادعي بعض المستشرقين أن مشاركته (في الحياة السياسية هو إخفاق له أكثر منه نجاح)^(٥)

وقد ناقض هذا المستشرق نفسه — أقصد لاووست — فقد ذهب (إلي أن ابن تيمية لم يخف ميلاً صادقاً نحو اتجاهات التصوف المعتدل ، وأنه اتجه في حرية الحقيقة إلي تصوف وحدة الوجود باعتباره زندقة)^(٦) ومعلوم أن هذه المذاهب والفرق من الصوفية بكل صورها قد أثرت في الحياة العامة

(١) د / مصطفى حلمي — أعمال القلوب ، ص ١٢٨ .

(٢) ابن تيمية — الاستقامة ٢ / ٢٠٨ .

(٣) ابن تيمية — قاعدة في المحبة ، ص ٢٧٦ .

(٤) د / مصطفى حلمي — ابن تيمية والتصوف ، ص ٥٣ .

(٥) نظريات شيخ الإسلام في السياسة والاجتماع — للمستشرق (هنري لاووست) ترجمه / محمد

عيد العظیم علي — تقديم د / مصطفى حلمي — دار الأنصار ، الطبعة الأولى ، ١ / ٢٦٩ .

(٦) أحمد أمين — ظهور الإسلام ، ص ٢٧٧ ، ط ١٩٥٥ م .

سياسية واجتماعية . وقد بين ابن تيمية أنه لكي يصل المؤمن إلي أبلغ درجات المحبة لابد له من موالاة المحبوب ، أي موافقة الله تعالى في حب ما يحب وبغض ما يبغض وتقبل الآلام والمشاق في سبيل تحقيق الأهداف ، فكما أن محبي الأموال والمناصب يلاقون من المتاعب والأضرار الكثيرة في طريقهم إلي مآربهم فإن المؤمن وهو أشد حباً لله تعالى يتقبل أنواعاً من المصاعب في سبيل إرضاء محبوبه والتي يلاقي نروتها في الجهاد ، وقد كان الشيخ متسقاً تمام الاتساق مع مذهبه في المحبة ، ذلك لأنه لم يفرق بين السياسة والدين ، ويكفيه فخراً موقفه العظيم البطولي من التتار والذي لن ينساه له التاريخ ، كما أنه وما زال هو حامل لواء محاربة الصوفية وخرافاتهم محاربة قرآنية ولم يكن قصده مواجهتهم علي طول الطريق ولكنه كان يقصد مواجهة التأويلات الفاسدة (التي أخرجت النصوص عن معانيها الصحيحة) (١) فنراه قد خصص بعضاً من كتبه في نقدهم .

فكتابه (الاستقامة) جاء نقداً للرسالة القشيرية محللة آراء القشيري ، ناقداً لقوله ، موثقاً لأحاديثه ، مثبياً علي ما وافق المنهج السلفي وكأنه بذلك لم يقصد الهدم وإنما عمد إلي تأصيل تلك المصطلحات قرآنياً وسنياً وإخراج الغث مع إقرار الثمين ، وذلك بناء علي منهجه في النقد المنهجي القائم علي الكتاب والسنة .

” غاية المحبة - الرؤية ”

الرؤية هي تمام المحبة ، وإليها يسعى المحبون يدفعهم الشوق إلي المحبوب بعد أن قطعوا العمر في لذة محبته ، فها هم تتجافي جنوبهم عن المضاجع خوفاً من فوات التتمة ، وطمعاً وشوقاً إلي نوال أعظم الهبات

(١) د / مصطفى حلمي / التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث ، ص ٢٩ ، دار الدعوة - الإسكندرية - ط ١ - بدون تاريخ .

والعطايا — ألا وهي الرؤية وحب اللقاء المباشر والمعاينة واللذة العظمي التي عندها تنتهي حركات العباد .

طرق ابن تيمية في الرؤية

وقد أنكر جماعة رؤية الله تعالى في الجنة منهم الجهمية الذين أنكروا المحبة من أصلها وأنكروا الخلّة أيضاً رغم ثبوتها من الكتاب والسنة وأقرها السلف ومشايخ الصوفية وكان أول من أنكر حقيقة المحبة الجعد بن درهم ^(١) وقتله خالد بن عبد الله القسري ^(٢) " بواسطة " يوم النحر — وقد أنكر الرؤية في الجنة جماعة من المتكلمين والفقهاء مثل ابن عقيل والجويني ، وقد أخطأوا في ذلك ، لأن من المتفق عليه بين سلف الأمة ومشايخ الطرق رؤية الله عز وجل في الجنة ويثبتون تتعم المؤمنين برؤية ربهم (فكلما كان الشيء أحب كانت اللذة بنيله أعظم) ^(٣) وقد استشهد ابن تيمية بما قال الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في موضوع الرؤية وصلته بالمحبة : (لو علم العابدون بأنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت نفوسهم في الدنيا شوقاً إليه) ^(٤)

وقد سلك ابن تيمية طريقاً في إثباته للرؤية من الناحيتين العقلية والنقلية وذلك في مسلكين — كان الأول دفاعاً عن أقرب المذاهب إلي أهل السنة ، والثاني كان خاصاً به نافح فيه عن الحق لذاته .

(١) الجعد بن درهم أول من تكلم في خلق القرآن — الفرق بين الفرق — للبغدادى ، ص ١٩ .

(٢) خالد : كان والياً على العراق لهشام بن عبد الملك ، ١٠٦ هـ وقد مات تحت العذاب ، قتله يوسف بن عمر الثقفي وقد قيل إن خالد قتل الجعد بدوافع سياسية ، لكنه موه باسم الدين ، إقناعاً للعامة بقتله ، انظر في ذلك (الفرق بين الفرق) ص ٢٧٨ للبغدادى وانظر د/ سعيد عبد الستار ميهوب (القرآن والنبوة عند القاضي عبد الجبار) هامش ص ٨٨ ، دار الهداية ، ط ٢ ، ٢٠٠٣ م .

(٣) السلوك ١٠ / ٦٩٦ .

(٤) المرجع السابق ٦٩٦ ، ٦٩٧ .

” الطريق الأول ”

ولم يقد دفاع ابن تيمية في هذا المسلك عن الحق في ذاته ، أو أنه لم يناقش هذه المذاهب إثباتاً لأحدها دون الآخر وذلك " لأنها اعتمدت في مقدماتها علي أصول فاسدة ، لذا لم يحاول إثباتها لا شرعاً ولا عقلاً " (١) وإنما ما حملة علي ذلك أمران هما :

الأول : محاولة بيان رجحان بعض الأقوال علي بعضها ، حتي يبين للفريق المخطئ خطأه ، لعله بذلك يشتاق إلي معرفة الصواب ، فيلقي سمعه لمن هو أصح منه (وهذا هو الميزان القرآني الذي أنزله الله) (٢) ويقصد به العدل .

الثاني : عدم إنكار الحق مهما كان قائله ، يقوا ابن تيمية (فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني — فضلاً عن الرافضي — قولاً فيه حق أن نتركه أو نرده بل لا نرد إلا ما فيه مخالفة للحق) (٣) وقد التزم ابن تيمية هذا المنهج وذلك كما يظهر في مناقشته للمخالفين لاسيما الاتحادية وخاصة ابن عربي .

وحقيقة الطريق الأول

أن مثبتي الرؤية أثبتوها لا في جهة ، وتلك مقولة نازعهم فيها النفاة من جانيها : الأول : الإثبات الثاني : القول بأنها لا في جهة

فأما الأول : فإن النفاة يرون أن الرؤية مستحيلة عقلاً ، فالرؤية عندهم غير ممكنة بأي حال من الأحوال ، ولكن هذا لا يستقيم لهم ، ذلك لأن

(١) منهاج السنة ٢ / ٢٦٣ — تحقيق د/ محمد رشاد سالم — مكتبة العروبة — مطبعة المنني ١٣٨٤هـ — ١٩٦٤م .

(٢) ابن تيمية — منهاج السنة ٢ / ٢٦٨ .

(٣) المرجع السابق ٢ / ٢٦٣ .

من شروط الرؤية الوجود ولما كان الوجود الأكمل للحق تعالى ، فإن قول (المثبتين أقرب إلي الصواب من قول النفاة ، ثم يبين ابن تيمية خطأ المثبتين عندما قالوا : إن كل موجود يرى) ^(١) فالموجودات منها ما يرى ومنها ما لا يرى ، وليس العدم هو الفارق بين الرؤيا وعدمها وإنما الفاصل في ذلك هو الكمال فيقول (فكل ما كان وجوده أكمل كان أحق بأن يرى وكل ما لم يمكن أن يرى فهو أضعف وجوداً مما يمكن أن يرى) ^(٢) وأكمل موجود هو الله فهو أحق بالرؤية مما سواه ، وإذا لم نستطع رؤيته في الدنيا فذلك لعجز أبصارنا عن ذلك لا أنها ممتنعة أصلاً .

وأما شطر المقولة الثاني وهو أنه يرى لا في جهة ، فليس هناك ما يبرر رده فالنفاة أنفسهم قد اشتركوا مع المثبتين في هذا الأصل ومع هذا فقد وصفوه بأنها مكابرة للعقل — فالنفاة يقولون بوجود موجود لا داخل العقل ولا خارجه ولا مباين له ولا متصل به ، في حين أن المثبتين يقولون بوجود موجود فوق العالم بذاته وهو ليس بجسم ولا متميز ، والتأمل في المقولتين يجد أن الثانية أقرب إلي العقل من الأولى ، وإن كان باطلاً فبطلان الأول أولي ، ومعلوم أن النفاة لا يحكمون العقل وإنما يلجأون إلي حاكم آخر هو الوهم وهو عندهم (القوة التي تدرك معاني جزئية غير محسوسة في الأعيان المحسوسة) ^(٣) فيحصرون وظيفته في الأمور الجزئية المحددة ، بينما الأمر هنا داخل في القضايا العامة المتعلقة بالعطف والتي لا علاقة لها بالحس أو الوهم .

(١) الملل والنحل — الشهرستاني ١ / ١٣١ ، دار المعرفة — بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م ، بهامش الفصل في الملل والأهواء والنحل — لابن حزم .

(٢) ابن سينا (الشيخ الرئيس — أبو علي الحسين ت ٤٢٨ هـ) — منهاج السنة ٢ / ٢٥٥ (أحوال النفس) حققها وقدم لها — أحمد فؤاد الأهواني — طبعة عيسى البابي الحلبي — ط ١ ، ١٩٥٢ م ..

(٣) منهاج السنة ، ٢ / ٢٥٨ ، درء تعارض العقل والنقل ، ٦ / ٥٤ ، ابن سينا أحوال النفس ، ص

وعلي الرغم من ذلك فإن ابن تيمية لما وجدهم علي رأيهم قائمون — جعل لهم ما يقولون من أن وجود موجود لا داخل العالم ولا خارجه أمر يعقل في حكم الوهم ولعلمهم باستخدام هذا الحكم (الوهم) يحاولون المراوغة في أحكامهم ، فقد قالوا إن الوهم الذي نفيت به مقولتنا من حكم الوهم الباطل عندما حكمت الأمور غير المحسوسة في أمور محسوسة ، فيرد عليهم ابن تيمية تحليلهم هذا بجوابين :

الأول : أن قول المثبتين في دلالته أقوى من قولهم ، وإن كان في رأي النفاة من حكم الوهم الباطل ، فالأجدر بهم قبول هذا الأقوي ، ذلك لأنه كما يقول ابن تيمية (كليهما علي قولكم من حكم الوهم الباطل ، وفساد قولكم أبين في الفطر من فساد قول منازعكم ، فإن كان قولهم مردوداً فقولكم أولى بالرد ، وإن كان قولكم مقبولاً فقولهم أولى بالقبول) (١)

الثاني : أن هؤلاء المثبتين أثبتوا أموراً محسوسة والنفاة قالوا بأمور غير محسوسة ولا يمكن الإحساس بها وهم بذلك يتابعون الفلاسفة (فإن كان هذا الحكم لا يبطل حتي يثبت الأمور التي ليست بمحسوسة لزوم الدور ، فلم يبطل هذا الحكم حتي يثبت ما لا يمكن الإحساس به ، ولا يثبت ذلك حتي يبطل هذا الحكم ، فلا يثبت ذلك) (٢)

(١) منهاج السنة ، ٢ / ٢٦٠ .

(٢) للمرجع السابق ، ٢ / ٢٦٠ .

الطريق الثاني

وينقسم إلي نوعين :-

الأول : عقلياً شرعياً منطقياً

الثاني : روحانياً وجدانياً ذوقياً

أما الأول : فهو عبارة عن نقد وبيان أوجه الفساد في القضية التي ادعوها والتي نقول : إنه ليس في جهة ، وكل ما ليس في جهة فهو لا يرى ، ويتساءل ابن تيمية ما المقصود بالجهة هنا ؟

إنها إما أن تكون أمراً وجودياً أو أنها عدمية ، فإذا كانت وجودية (كان التقدير كل ما ليس في شيء موجود لا يرى) ^(١) وهذا غير صحيح فسطح العالم يمكن رؤيته وهو ليس في عالم آخر ، وإن كان الثانية (كانت المقدمة الثانية ممنوعة) ^(٢)

والملاحظ أن النفاة نفوا الرؤية خشية الوقوع في لوازمها ، حيث نجدهم لم يققوا علي حقيقة المكان إلا بالمعني الأرسطي ، وأن المراد به أن يكون الشيء الفوقي محتاجاً لما تحته ، ولكن بمعرفة المعني الثاني للمكان تزول تلك الشبهة عن هذا الأمر فالمكان هو (ما يكون الشيء فوقه من غير احتياج إليه ، مثل كون السماء فوق الجو وكون الملائكة فوق الأرض والهواء) ^(٣) وهذا المعني هو ما كان عليه السلف والصحابه بل وأقره النبي ﷺ ^(٤)

(١) منهاج السنة ٢ / ٢٦٩ .

(٢) المرجع السابق ٢ / ٢٧٦ .

(٣) المرجع السابق ٢ / ٢٦٩ .

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣ / ٩٠١ .

وقد انطلق ابن تيمية في بيان النوع الثاني ، مع نظراته الروحية وتفسيراته الذوقية لمعاني الرؤية وحقيقتها سواء كان ذلك في الدنيا معرفياً أم في الآخرة حقيقة ومشاهدة عيانية ، ويبين أوقاتها ودرجاتها ومراتبها .

” حقيقة الرؤية ”

رغم أن إشكالية رؤية الله تعالى بالإبصار يوم القيامة تعد واحدة من الإشكاليات الكبيرة في الفكر الإسلامي العقائدي والكلامي، وهذه الإشكالية أدخل إلي باب التصورات منها إلي باب التحيقات تأسيساً علي أن فرق المتكلمين لم يتفقوا علي رأي واحد بخصوصها ^(١) إلا أن أهل السنة متفقون علي جواز الرؤية وعلي أن لذة النظر إلي وجه الله أعلي للذات في الآخرة ، كما دل الكتاب والسنة وكما أثبت ذلك مشايخ الصوفية وأهل السنة والجماعة بل عوام الأمة .

وإن رؤيته تعالى هي أعلي مراتب النعيم ، فهو غاية الطالبين ومقصد العارفين ، وهي وإن كانت متفاوتة في درجاتها تبعاً للحب والمعرفة ، فالشأن في المعاينة والمشاهدة ، والظفر بقاء الحبيب قال تعالى ” يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ” ^(٢) وقد فسر السلف ” الكدح بالسير والسلوك ، والملاقة والمشاهدة والرؤية والمعاينة ” ^(٣) علي ما حكاه ابن تيمية وجمهور القائلين بالرؤية من السلف ومن تبعهم يقرون بأننا سنراه سبحانه وتعالى

(١) د / سيد عبد الستار ميهوب (الإلهيات عند ناصر الدين البيضاوي) ص ١٥٨ — دار الهداية ،

ط ١ ، ١٩٩٤ م .

(٢) سورة الانشقاق (٦)

(٣) الفتاوي ٦ / ٤٦٢ — ٤٦٣ .

(عياناً مواجهة كما هو معروف بالعقل) (١) وذلك لقوله ﷺ (إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر لا تضارون في رؤيته) (٢)

• وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم) فإذا الرب تعالى أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة : قال : ذلك قول الله " سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ " (٣) قال : فينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتي يحجب عنهم ، ويبقي نوره وبركته عليهم في ديارهم (٤)

دوام الرؤية

والسؤال هو : هل الرؤية دائمة ؟ لا ، ليست دائمة وإنما هي ذات أوقات يتجلى فيها الحق علي عباده فثمة رؤية ومشاهدة عامة معتادة تكون علي حسب الصلوات المعتادة ، وهناك مشاهدة خاصة وذلك في مقابل الرؤية القلبية التي تحدث للعباد في يوم الجمعة ، لما رواه أبو داود عن ابن عباس أنه قال : قال النبي ﷺ (إن أهل الجنة يرون ربهم في كل يوم جمعة في رمال الكافور) ، وأقربهم منه مجلساً أسرعهم يوم الجمعة وأبكرهم غدواً (٥) وقد وردت الأحاديث بجواز الرؤية أكثر من مرة ولكن الرؤية يوم الجمعة

(١) منهاج السنة ٢ / ٧٥ .

(٢) حديث صحيح - أخرجه مسلم في صحيحه (المساجد / ٢١٣ ، ٢١٤ . رقم ٦٣٤ ، وأبو داود)

(٣) (٤٢٧) والنسائي (١ / ٢٣٥) .

(٤) سورة يس (٥٨)

(٥) الفتاوى ٦ / ٤١٧ .

(٥) ابن ماجه ١ / ٦٦ ، المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية ، وفي سند الحديث أبو عاصم " قال المحقق : قال الميوطي في مصباح الزجاجة ، والذي رأيته أنا في كتاب العقيلي ما نصه : عبد الله بن عبيد الله أبو عاصم العبداني منكر الحديث وكان الفضل يرى القدر يغلب علي حديثه الوهم ١ / هـ .

هي أخصها وأعظمها أثراً بل إنه قد يكون أفضل من تجلي مرات متعددة ،
ويأتي الفارق من كيفية للصلاة وأوانها إذ كل (بحسب صلاته يرى) (١)
والذي يفهم من هذا أن الرؤية مرتبطة بالصلاة والفارق بين الرجل والكفر
ترك الصلاة — فهل يرى الكفار ربهم ؟ .

لقد تعددت الآراء حتي قال ابن حزم إن الكافرين (يرون الله تعالى
في الآخرة بقلوبهم) (٢) أما ما عليه أصحاب الإمام أحمد أن الكافرين لن
يروا ربهم مطلقاً وهو ما اختاره ابن تيمية أيضاً جاعلاً عمده دليله قوله
تعالى " كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ " (٣) فإذا قيل إنهم يحجبون في
حال دون الأخرى لم يكن هناك دليل علي ذلك ، كما أن فيه تسوية وخط
بينهم وبين المؤمنين ، فروية المؤمنين كما سبق لن تكون مستديمة ،
والكافرون يوم القيامة سوف يكونون محجوبون عياناً قال تعالى " وَنَحْشُرُهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى " (٤) وقال تعالى : " وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي
الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا " (٥) والعمي كما هو معلوم ينافي الرؤية ثم إن
رؤية الحق تعالى هي أعلي النعم وأعظم اللذات للمؤمنين في الآخرة وهي
أشد العقوبات للكافرين والمجرمين بل (اللذة والنعيم التام للمؤمنين في حظهم
من الخالق سبحانه وتعالى ، كما في الدعاء المأثور : (اللهم إني أسألك لذة
النظر إلي وجهك والشوق إلي لقائك في غير ضراء مضره ولا فتنة
مضلة) (٦)

(١) الفتاوي ٦ / ٤٤٨ / ٤٥٥ / ٤٠٨ .

(٢) ابن حزم — الفصل في الملل والأهواء والنحل — ٤ / ٣ ، ط٢ ، دار المعرفة — بيروت ، ١٩٧٥ م .

(٣) سورة المطففين (١٥)

(٤) سورة طه (١٢٤)

(٥) سورة الإسراء (٧٢)

(٦) رواه النسائي وغيره — ابن تيمية — توحيد الألوهية — ص ٢٦ ، ١٩٩٢ م .

وتتعدد درجات الرؤية سواء أكانت في الدنيا أم في الآخرة فإنها مرهونة بالإيمان والحب والمعرفة وهذه المشاهدات الحاصلة متعلقة بما يسمى (المثال العلمي) القائم أصلاً على الفطرة وقد كتب الحق هذا المثال العلمي في قلوبنا ، فارتسمت فيها — أي القلوب — الحقيقة وفقاً للخبر الصحيح . قال تعالى " كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ " (١) يقول ابن تيمية (وما في القلوب من معرفته لا يماثلها شيء من المعارف ، ومحبه لا يماثلها شيء فله المثل الأعلى كما أنه في نفسه الأعلى) (٢) وتتباين مقادير الخلق واستعداداتهم للتجلي والرؤية بحسب تباينهم في معرفة الأسماء والصفات ومعرفة ما ورد عن النبي ﷺ من أخبار وأيضاً تفسيرها حسب مرادها الصحيح ، فالعلم والإرادة (يكسبان العبد قوة وثباتاً في الحب والعبودية ، أكبر بكثير من العارف بالصفات دون القيام بها) (٣) وقد اختلط علي بعض السالكنين الأمر حتي زعموا أنهم هو (تعالى) أو أنهم اتحدوا به ولكن ابن تيمية يخرج هذا الزعم باحتمالين :-

الأول : إما أنه خطأ .

الثاني : أنه توسع في العبارة ، والمقصود أنه اتحاد في المطلوب والمحبوب والمأمور به وذلك باتحاد الشخصين كقول النبي ﷺ (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تنافرت منها اختلف) (٤) ففي هذا

(١) سورة المجادلة (٢٢)

(٢) الفتاوى : ٢٥٠ / ٥

(٣) السابق : ٢٥٣ / ٥

(٤) رواه البخاري ، ج ٣ ، ص ١٢١٣ رقم ٣١٥٨ ، مسلم ، ج ٤ ، ص ٢٠٣١ رقم ٢٦٢٨ ، وابن حبان ، ومسنند أحمد ، ومسنن أبي داود .

تناسب وتشابه في العلم جعلها متناسقة متعارفة فيما تحب وتكره ، وكلما رقت قلوب العارفين أصبحت محلاً لكي تتجلي لها الذات الإلهية ولا يكون هذا إلا في المنام ، ويكون ذلك علي حسب إيمانه وبقينه ومراقبته لربه فإن كان في إيمانه نقص رأي ما يشبهه ، وإن كان قوياً في الإيمان واليقين رآه بحسب ذلك ، ولما كان النبي ﷺ (أتم إيماناً وأعظم يقيناً رآه في أحسن صورة) (١) وإذا كانت الرؤية قد يعثرها النقص إلا أن هناك مرتبة تمثل أسمى وأعلي درجات الرؤية وتكون في مقام الإحسان ولكن هل هي عيانية أم قلبية ؟ .

يتفق علماء السلف في هذا الأمر علي أن رؤية الحق سبحانه وتعالى ممكنة في الآخرة ، وليست مستحيلة عقلاً كما ظن ذلك بعض الفرق كالمعتزلة والجهمية الذين أنكروها من أساسها ولكن قد ثبت (بالفعل إمكان رؤيته تعالى ، وبالشرع وقوعها في الآخرة ، فاتفق الشرع والعقل علي إمكان الرؤية ووقوعها فإن الرؤية أمر وجودي لا يتعلق إلا بوجود ، وما كان أكمل وجوداً كان أحق أن يرى ، فالباري سبحانه أحق أن يرى من كل ما سواه ، لأن وجوده أكمل من كل موجود سواه) (٢) ولكنها مع ذلك — لم تثبت لأحد — كما أنها لم تنسب إلا للنبي ﷺ (٣) إلا أن الثابت عن النبي ﷺ أنه قال عندما سأله أبو ذر رضي الله عنه هل رأيت ربك ؟ فقال (نور . أني أراه) وفي رواية أخرى رأيت نوراً والحاصل من الحديث أنه لم يرى ربه بعينه ، وإنما كانت رؤية قلبية ، وأيضاً لما رواه ابن عباس من أن النبي ﷺ رأى ربه بفؤاده مرتين ، وكما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها (من زعم

(١) ابن تيمية — منهاج النبوة ، ٩٦ / ٢ .

(٢) ابن القيم — مختصر الصواعق المرسله علي الجهمية والمعتزلة لابن قيم الجوزية ، تحقيق / سيد

إبراهيم ، دار زمزم — الرياض — دار الحديث — القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، ص ٤٠١ .

(٣) ابن تيمية — درء تعارض العقل والنقل ٤١ / ٨ .

أن محمداً رأى ربه فقد أعظم علي الله الفرية (١) والراجح — والله أعلم — ما قاله أبو زر وابن عباس بالخبر الصحيح فهي مسألة لا يصلح فيها إلا الخبر الصحيح لا الظن والاجتهاد . والرؤية قد ثبتت بالشرع (ومن ادعي معارضة الوحي بعقله لم يقدر الله حق قدره وقد ذم الله سبحانه وتعالى من لم يقدر الله حق قدره في ثلاثة مواضع من كتابه) (٢) وفي النهاية يمكن القول بأن رؤية الحق تبارك وتعالى في الدنيا ، هي رؤية روحية وتجليات إلهية ينشرها الحق لعبادة رافعاً بها عن قلوبهم الحجب علي قدر ما فيها من معرفة ومحبة وهيبة وإجلال وتوكل فيظل القلب في صعود إليه ، كما ينجذب إليه البدن ، ما دام في إحصاء صفاته وأسمائه ، ثم يدرك المحبوب ويحدث الذوق وينال الوصل .

الذوق

والذوق في اللغة يكون بالفم وأيضاً يكون بغير الفم وذلك للمعاني ، أي أنه حالة تستشعرها النفس والروح ، كقيام الطعام والشراب بالأجسام (٣) وبالجملّة فهو (يستعمل في كل ما يحس به ، ويجد ألمه ولذته) (٤) والإحساس هنا عام سواء بالحواس أو بالباطن ، وإن كان أصله الرؤية قال تعالى (هل تحس منهم من أحد) (٥) وقد ورد استعماله في القرآن بمعنى الإحساس بالملائم والمنافر مما (يدل علي أنه أعم) (٦) ومن الذوق بالفم ،

(١) راجع هذه الأحاديث في صحيح مسلم بشرح النووي ٣ / ٢ - ١٥ ، كتاب الإيمان — باب في ذكر

سكرة المنتهي .

(٢) ابن القيم — السابق ، ص ٤٠٢ . (مختصر الصواعق المرسلّة)

(٣) لسان العرب — مادة ذوق .

(٤) ابن تيمية — الإيمان ، ص ٨٤ .

(٥) الفتاوي ، ١٠ / ٣٣٤ — ٣٣٥ ، مريم ، الآية ٩٨ .

(٦) المرجع السابق ١٠ / ٣٣٤ — ٣٣٥ .

ولكن هذا لا يعني إطلاق استخدام اللفظ (وإنما هو مقيد بما يدل عليه) (١) ولذا يعرف ابن تيمية الذوق بأنه (إدراك المحبوب) (٢) وعلي قدر التجليات يكون الذوق وبه يقترب المحب من تكميل محبته التي بها يجد حلاوة في قلبه كما قال ﷺ (ثلاث من كن وجد بهن حلاوة الإيمان) (٣) وقال (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً) (٤) فعلق ﷺ الذوق الإيماني بتمام المحبة ، وهو الأمر الذي فيه يتفاوت الخلق بقدر تفاوتهم في (توحيد قلوبهم إلى الله وإقبالهم عليه دون سواه) (٥) والذوق درجة وسطى بين المحبة واللذة ، ولأهله درجات ثلاث بآخرها تتم العاطفة القلبية محدثة فيه نشوة ولذة بادية واضحة باللذة الكبرى عند الرؤية البصرية التي تتحقق في الآخرة لصاحب هذه الدرجة .

الدرجة الأولى : ذوق علمي يحصل بإخبار الرسل .

الدرجة الثانية : ذوق مشاهدة ومعاينة لما أخبر به ، كأن يعاين الجنة والنار والثواب والعقاب ويرى أهل المواقيد والأذواق في الدنيا .

الدرجة الثالثة : ذوق المباشرة والمعاينة الحقيقية الفعلية والتي يرقص فيها القلب طرباً ، التي قال فيها بعض العارفين (لقد كنت في حال أقول فيها إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا العيش إنهم

(١) الإيمان ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) الفتاوى ، ١٠ / ٣٢٦ .

(٣) لرسائل والمسائل ٢ / ١٦٢ .

(٤) صحيح مسلم - ج ١ ، ص ٦٢ ، رقم ٣٤٢ - صحيح ابن حبان ، ج ٤ ، ص ٥٩٢ رقم ١٦٩٤

ص ٢٨ .

(٥) الفتاوى ١٠ / ٣٦٦ .

لنفي عيش طيب (١) ويتفاوت الناس في الذوق في الدنيا والآخرة أما في الآخرة فهم فرحون مسرورون لما أفاء الله تعالى عليهم من فضله قال تعالى " قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ " (٢) وقال تعالى " وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورًا " (٣) .

يقول ابن تيمية : (فالنضرة جمال الوجوه ، والسرور جمال القلوب) (٤) فكان وصفهم بالظاهر والباطن معاً . وهم في شوق دائم إلى الرؤية فيها تحصل اللذة التامة ، وتنتهي بها حركات العباد يقول ابن تيمية : (واللذة هي الغاية من الحركات الإرادية ، فتكون الغاية من اللذات هي الغاية من الحركات) (٥)

اللذة

في اللغة : هي نقيض الألم ، وهي إدراك الملائم من حيث أنه ملائم ، واللذة واللذائذ واللذيق للأكل والشرب (٦)

وفي الإصطلاح : هي ظاهرة وجدانية ، وحالة نفسية من الصعب تعريفها إلا أنها تحس ونجد أثرها في نفوسنا (٧) وبهذا فهي معنوية كالحب والقرب .

(١) الرسائل الكبرى ٢ / ١٦٠ .

(٢) سورة يونس (٥٨)

(٣) سورة الإنسان - آية : ١١ .

(٤) جامع الرسائل / ٧٠ .

(٥) قاعدة المحبة ، ص ٢٤٩ .

(٦) لسان العرب - مادة - (لذ) .

(٧) المعجم الفلسفي / مجمع اللغة العربية - الهيئة العامة للمطابع الأميرية ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

تقسيم ابن تيمية اللذة إلى أقسام

يقسمها ابن تيمية إلى أقسام ثلاثة :-

الأول : حسي : وهو مما يكون بإحساس الجسد كأنواع المأكول والمشروب .

الثاني : وهمي : وهو ما يتخيله ويتوهمه بنفسه ونفس غيره كالمدح والتعظيم له والطاعة له .

الثالث : عقلي : وهي لذة روحية متعلقة بالقلب والروح والعقل وهي ناشئة من ذكر الله ومعرفته ^(١) ، وهذا القسم من أعظم الأجناس فإن (لذة القلب وألمه أعظم من لذة الجسم وألمه ، وأعني ألمه ولذته النفسانيتان إذ به يشعر القلب بالطمأنينة ويشعر بالأنس) ^(٢) ولكن السؤال الذي يطرح هو أي هذه اللذات له صفة الدوام والاستقرار ؟

يرى ابن تيمية أن اللذات منها محمود ، ومذموم وباطل .

فأما المحمودة فهي : (مقصد كل حي ، وتقصد لذاتها) ^(٣) وهي النعيم الأخروي الدائم .

قال تعالى " وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ " ^(٤) يقول ابن تيمية (فشهوة النفوس ، ولذة العيون هو النعيم الخالص ، والخلود هو الدوام والبقاء) ^(٥) قال تعالى " فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا

(١) قاعدة المحبة ، ص ٢٤٦ .

(٢) الفتاوى - ١٠ / ١٤٠ .

(٣) الاستقامة - ١٥١ / ٢ .

(٤) الزخرف (٧١)

(٥) الاستقامة - ١٥٢ / ٢ .

كَانُوا يَعْمَلُونَ " (١) وقال تعالى " يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ " (٢) فلذات الدنيا عند ابن تيمية هي السبيل إلى لذات الآخرة وإن كانت بالطبع قليلة إذا قُيِّسَتْ بها قال تعالى " وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ " (٣) ومن هنا فإن هذه اللذات الدنيوية من حسية ووهمية وعقلية وغيرها يثاب عليها إذا ما كانت لوجهه تعالى — وقد اشتاقت النفوس إلى ما تلتذ بسببه لذا كانت أعظم اللذات هي لذة الرؤية إلى وجهه الكريم وسبب ذلك (أن حب الله موجود في قلب كل مؤمن) (٤) فاشتاق القلب إلى الرؤية الظاهرة التي تكون عقيب النظر يقول ابن تيمية (واللذة مقرونة بالنظر ولا أحب إليهم من النظر لما يقترن به من اللذة ، لا أن نفس النظر هو اللذة) (٥) بدأ يتضح أن مفهوم اللذة عنده ليس مقصوراً على الذوق وحدة ولا المحبة وحدها أو المعرفة فحسب ، وإنما هي (أمر ذوقي وجودي ضروري) (٦) وثمره التلازم التام بين المحبة والمعرفة والذوق فيقدر قوتها مجتمعة تكون اللذة ، وابن تيمية عندما يبين أن اللذة ليست هي لذة النظر وإنما هي ثمرة النظر — يبين خطأ الفلاسفة ومن سار على دربهم فقد ظن بعضهم خطأ أن اللذة هي ، (إدراك الملائم) (٧) وذلك مما دخل عليهم من الجهل والكفر حيث أن الرؤية هي تمام المحبة ولا تتم المحبة إلا بالمعرفة فالأخيرة إحساس

(١) سورة السجدة (١٧)

(٢) سورة غافر (٣٩)

(٣) الرعد (٢٦)

(٤) براء تعارض العقل والنقل ، ٧٤ / ٦ .

(٥) الفتاوى ، ١٠ / ٣٢٧ ، ٧ / ٥٣٧ ، الاستقامة ٢ / ١٤٩ .

(٦) الاستقامة ، ٢ / ١٤٩ .

(٧) ابن سينا ، رسالة أضحية في المعاد ، طبعها وحققها د/ سليمان دنيا معد ، ١٣١٨ / ١٩٤٩م

ص ١١٢ .

ابن سينا ، النجاة — طبعها وحققها د/ سليمان دنيا معد ، مطبعة السعادة ، ١٣٣١هـ ، ص ٤٠١ .

وحب لذا يبين ابن تيمية أن (سبب اللذة إحساس الملائم ، وسبب الألم إحساس المنافي وليس اللذة والألم نفس الإحساس والإدراك وإنما هو ثمرته ومقصود غايته) (١) وإتماماً للفائدة فإن ابن تيمية لم يقل بدوام الرؤية واستمرارها وإنما لها أوقات خاصة معلومة ، ثم ينشغل العباد بمزاولة النعيم والذي (يتضاعف ويتزايد كما يشاء الله تعالى) (٢) فإن الله تعالى يقول " فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ " (٣) وهم أثناء الرؤية لا يلتفتون إلي نعيم قط وفي هذا رد علي الصوفية الذين قصروا (اللذة علي الرؤية دون نعيم الجنة) (٤) كما قد نسب هذا إلي بعضهم من أمثال رابعة العدوية (ت ١٨١هـ) وغيرها .

”موقف الفلاسفة من اللذة“

وقد سار الفلاسفة في طرق كثيرة من اثبات وجدد للذة ضاهوا بها أهل الكتاب من يهود ونصاري فكذبوا حقيقة ما (أخبر الله به علي ألسن رسله من وعده ووعيده فصاروا تاركين لما ينفعهم من لذات الدنيا معرضين عما خلقوا له من لذات الآخرة ، ومعتاضين عن ذلك بأخذ ما يضرهم مما يظنون أنه لذة في الدنيا ، أو موصل للذة في الدنيا وهم في ذلك " إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمْ الْهُدَى " (٥) وابن تيمية يغلطهم في هذا حيث اتبعوا تفكيرهم بغير هادٍ من الشرع أولوه أو حادوا عنه مقدمين العقل علي النقل وهذا سبب عظيم في تفريع كثير من البدع والضلالات حتي رفعوا بسببه — أي العقل — من ليس من المؤمنين ومن متبعي الرسل أصلاً

(١) الفتاوى ، ١٠ / ١٤٠ .

(٢) قاعدة في المحبة ، ص ٢٤٩ .

(٣) سورة المسجدة (١٧)

(٤) الاستقامة ٢ / ١٥٣ .

(٥) سورة النجم (٢٣)

— كأرسطو وأفلاطين وغيرهما — والمتفلسفة أصناف من الصائبة والمشركين ومن حذا حذوهم ممن (صنف في أصناف اللذات — كالرازي وغيره وقد جرهم الغلط في اللذات إلى الدين الفاسد في الدنيا بالاعتقادات الفاسدة والعبادات والزهاديات الفاسدة ^(١)) وقد كان ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) من بين الذين نفوا اللذات الحسية والوهمية وأثبتوا العقلية وجعلوها هي اللذة الحقيقية فحسب وقد كان لهذا الأثر الكبير على المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة وكذلك علي ملاحدة الصوفية من الاتحادية والخلوية والوجودية .

وقد سلك ابن سينا مسلك اليهود في نفهم للذات الحسية والوهمية عندما زعموا أنها لدفع الألم لا للتعم ، وأن اللذة الحقيقية هي اللذة العقلية ، فإن النفس عنده بذلك تتبرأ من تلك الأحوال (وتتصل بكمالها منغمسة في اللذات العقلية) ^(٢)

والواضح من تعريفه للذة أنه يخلط بين اللذة والذوق وظن أن الإدراك لها هو إدراك (الوجود المطلق بأنواعه وأحكامه) ^(٣) بل طلب هو وأمثاله اللذة العقلية في الدنيا بما هو من هذا النمط من الأمور العقلية وتكلموا في الإلهيات بكلام حقه قليل وباطلة كثير . ونري ابن سينا في مواضع كثيرة يري أن النفس تظل في سيرها نحو مبدأها الأول (للروحانية المطلقة) والتي تتعلق بنوع من الأبدان إلى أن (تستوفي في نفسها هيئة الوجود كله فتقلب عالماً معقولاً ، موازياً للعالم الموجود كله ، مشاهداً لما هو الحسن المطلق والخير المطلق ، والجمال المطلق ومتحد به ، ومنتعشاً بمثاله وهيئته ومنخرطاً في سلكه ، وصائراً من جوهره) ^(٤) والوجود المطلق الذي تخيله

(١) ابن تيمية — قاعدة في المحبة ص ٢٥٠ .

(٢) ابن سينا — أحوال النفس — ١٤٠/١٣٩ .

(٣) ابن تيمية — السابق ص ٢٥٢ .

(٤) ابن سينا : أحوال النفس ، ١٣٩ — ١٤٠ .

ابن سينا لا يمكن تصويره إلا في الأذهان ، ومن ثم جعل النفس ليست جسماً لأنه فصل بين الماهية ، والوجود ولذا فقد أنكر معاد الأبدان — وهو السبب الذي من أجله كفره الغزالي وابن تيمية وعلماء أهل السنة — وذلك مع غيره من الأسباب الأخرى .

وعلي مذهب ابن سينا في اللذة يتضح أنها لذة خيالية لا حقيقية وانفق مع من (جعلوا عالم الخيال هو أرض الحقيقة) ^(١) وقد وصل إلي ما وصل إليه ابن سينا متفلسفة أشباهه مثل ابن عربي — حيث رأي الأول — أن العقوبة (غير خالدة ، بل تزول وتتمحي قليلاً قليلاً حتي تزكو النفس وتبلغ السعادة التي تخصها) ^(٢) وإذا كان ابن سينا أستاذاً لمن بعده في هذا الباب فإنه قد سار علي سنن من سبقوه من الفلاسفة والذين استقوا آراءهم " من الصابئة وأفلاطون وجالينوس من أطباء اليونان " ^(٣)

"موقف ابن تيمية من منكري المحبة"

بعد أن اتضح مذهب ابن تيمية في المحبة وأنه يمثل مذهب السلف عموماً وهو قد آل علي نفسه نصرة مذهب السلف حتي صارت المحبة عندهم هي النقطة الأولى التي يقترن فيها النظر بالعمل ولا (غرابة في ذلك لأن كثيراً من آيات الله عز وجل وأقوال رسوله ﷺ تحقق خفقان القلوب حباً لله عز وجل ورجاء في مغفرته وخوفاً من عذابه) ^(٤) ولم تكن المحبة عنده تعني غير الاقتداء ، فهي ليست نزوعاً نحو الجمال فحسب ولكنها تطلب التقرب بتنفيذ أوامر الله عز وجل ، ولكن فريقاً آخر ممن ينتسب إلي الإسلام

(١) ابن تيمية — درء تعارض العقل ، ١٠ / ١٠٨ — ١٠٩ .

(٢) السابق ، ص ٣٧ .

(٣) أبو بكر الرازي ، من كتاب اللذة ، ص ٣٩ .

(٤) د/ مصطفى حلمي (أعمال القلوب) ، ص ٢ .

عارض ما رآه ابن تيمية في باب المحبة واتخذوا التأويل سلاحاً هاماً به انكروا المحبة بل عطلوا الصفات الإلهية بعمامة وحالوا إلى المجاز اللفظي ليأولوا ألفاظ القرآن والسنة . فكان — المجاز — نبأً في أرض التعطيل وكان — والحق يقال — نبأً غير طيب أضر المجتمع الإسلامي في عقيدته ، وقد تنبه إلى ذلك الإمام أحمد بن حنبل فرفضه في بدايته ، ولكنه استشري من بعده فأتي ابن تيمية وغيره ، فرفضوا تلك الأداة التعطيلية — أقصد المجاز — وقد أنكر ابن تيمية المجاز عند تناول الصفات الإلهية كما فعلت المعطلة وكما استغلته المعتزلة في إنكارهم الحب الإلهي . وقد استقرأ ابن تيمية لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم فلم يجد لمصطلح المجاز كقسيم للحقيقة وجوداً إلا علي السنة المتأخرين — وهو يندرج في عصرنا الحاضر تحت المباحث البلاغية — أما عند المتقدمين فقد خلت منه تماماً ، إذ لم يحدث هذا التقسيم من أحد من الصحابة أو التابعين أو أئمة العلم (كمالك والأوزاعي ، وأبي حنيفة ، والشافعي ، أو أحد من أئمة اللغة كسيبويه والخليل وأبي عمر)^(١) وأول من عرف عنهم ذلك هو أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه (مجاز القرآن واستخدمه بمعناه اللغوي ، لا الفلسفي ، وعليه محمل ما تكلم به الإمام أحمد في رده علي الزنادقة والجهمية)^(٢) ومعني هذا أن ابن تيمية يقر نوعاً من المجاز (لكنه ليس مجازاً في الدلالة علي المراد بل من قبيل المجاز في التعبير اللغوي)^(٣) وقد كان يرى أن الألفاظ المطلقة لا تحمل صفة المجازية إلا بالتركيب مع لفظ آخر بطريقة معينة عندئذ (تصير وضعاً

(١) ابن تيمية — الإيمان — ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) الفتاوى ، ج ١٢ / ٢٧٧ .

(٣) د/ الجليلد — ابن تيمية وموقفه من التأويل ، ص ٣٧١ ، ط ١ ، ١٩٧٣م — مجمع البحوث الإسلامية .

آخر بالإضافة ، فلو استعمل بتلك الإضافة علي غيره كان مجازاً (١) من ثم فإن تقييد الألفاظ يصبح هو الحكم في دلالة اللفظ علي الحقيقة أو المجاز .

فالحب المضاف إلي الحق تبارك وتعالى نوع والمضاف إلي البشر نوع آخر وذلك لأن إضافته إلي الحق تبارك وتعالى قد أكسبته صفة الإلهية وإضافته إلي العبد أفادت ودلت علي معني العبودية لله ، وميله التام نحوه عز وجل (فاقتران ألفاظ القرآن تدل علي اقتران معانيه ، وإعطاء كل معني حقه) (٢) قال تعالى " وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي " (٣) فبإضافته إليه سبحانه تخصص وتميز ، و (قطع الاشتراك بين الخالق والمخلوق) (٤) ولا يصلح ما جاء في اللغة من مجاز أن يكون كله في القرآن فإن في كلام المخلوقين مبالغة ومجازفة في المدح والهجو والمرائي وغيرها وهو (الأمر الذي يسان عنه كلام الحكماء ، فضلاً عن كلام رب العالمين) (٥) وليس بالقرآن غلو أو ما يستحيل علي الله تعالى فلا يعقل أن يكون به مجاز كما في الشعر مثلاً وكما قيل — إن أصدق الشعر أكذبه — فمن المستحيل أن يكون في القرآن مجاز البتة وهو ما قد يتولد عنه التأويل الفاسد والتعطيل المؤدي إلي جحد الباري تعالى وصفاته وأسمائه الحسنی .

ومن أعظم ما يعقله العقلاء أنه لو جاز بالقرآن التأويل لجاز به التحريف ، فيفسر كل بحسب هواه وحسب مصطلحاته التي يحدثها ، دون النظر في أصول اللغة التي بها نزل وهذا من باب العبث بآيات الله وكتابه ، وهذا ما يراه ابن تيمية حيث يرى أن (من أعظم أسباب الغلو في فهم كلام

(١) ابن تيمية — الإيمان ، ص ٧٧ .

(٢) الفتاوى ٢٠ / ٤٦٥ ، ١٢ / ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٣) سورة طه (٣٩)

(٤) الفتاوى ٢٠ / ٤٤٣ .

(٥) الفتاوى ٢٠ / ٤٨٣ .

الله ورسوله أن ينشأ الرجل علي اصطلاح حادث فيرى أن يفسر كلام الله بذلك الاصطلاح ، ويحمله علي تلك اللغة التي اعتادها (١)

”المجاز عند الفلاسفة“ .

لقد أقام ابن تيمية منهجه (علي أساس أن القرآن يتضمن أدلة عقلية للرد علي الفلاسفة والمتكلمين نفاة الصفات والأفعال) (٢) وأيضاً يجب الأخذ من مشكاة النبوة في كل ما يتعلق بالعقائد والعبادات وقواعد السلوك وذلك لأن المنهج النبوي يغني عن آراء الرجال ، فإن (العقول المؤيدة بالتوفيق تري أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الموافق للعقل والحكمة) (٣) وقد انطلق ابن تيمية من عقيدته في تناوله لقضية المجاز والتأويل القائم عليه . فأعلن أن المجاز قائم علي قاعدة الصابئة في نفي صفات الرب تعالي ذلك لأن الصابئة يصفون الحق تعالي (لا بصفة سلبية ولا بصفة إيجابية) (٤) فالمجاز إذاً فكرة استنقت أصولها من (منابع يهودية وصابئة وإشراكية وفلسفية) (٥) ودليل ابن تيمية علي ذلك أنه (بالرجوع إلي مصادر الجهم نراه أخذ مقولته في التعطيل عن الجعد بن درهم وقد قيل إنه أخذها عن أبان بن سميعان وأخذها أبان من طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم . وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ) (٦) وبالرجوع إلي موطن الجعد يتبين كما أثبت ابن تيمية أنه من حران والمعروف أن حران هذه كانت موطناً لخلق كثير من الصابئة والفلاسفة

(١) الفتاوى ١٢ / ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) ابن القيم - اجتماع الجيوش الإسلامية ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣) ابن القيم : الفوائد ، ص ١٠١ .

(٤) الفتاوى ، ج ١٢ / ٣٥١ .

(٥) ابن تيمية - الفتوى الحموية ، ص ٩٩ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٩٨ .

بقايا دين أهل نمرود والكنعانيين الذين صنف بعض المتأخرين في سحرهم ،
ومن المعروف أيضاً أن ابن تيمية حراني الموطن وله خبرة وعلم بأهلها .

ومذهب النفاة من هؤلاء في الرب سبحانه : أنه (ليس له علم صفات
سلبية أو إضافية أو مركبة منهما) ^(١) والجعد له مصادر متعددة أربعة في
مقولته هذه قد أخذها عنهم وترجع إليهم أسانيده في النفي والتعطيل وهي (
اليهود والصابئة والمشركون والفلاسفة الضالون) ^(٢) وقد نقل ابن حزم مقوله
للجعد ابن درهم فيه نفي صريح لاسم من أسماء الله تعالى وهو الخالق كان
مقصده من ورائه التعطيل المحض للأسماء الإلهية فضلاً عن الصفات حيث
يقول (إذا كان الجماع يتولد منه الولد ، فأنا الصانع ولدي ومديره وفاعله ،
لا فاعل له غيري ، وإنما يقال إن الله خلق مجازاً لا حقيقة) ^(٣) وهذا النص
يكشف لنا في الحقيقة أن (المجاز) نشأ أول الأمر بين المتكلمين وهذا ما
يقوى رأي ابن تيمية في إرجاعه المجاز في أصله إلي المعتزلة حيث قال إن
(اصطلاح المجاز حادث والغالب أنه من جهة المعتزلة ونحوهم من
المتكلمين) ^(٤) وقد كان الجاحظ (ت ٢٩٥هـ) أول من حرف مصطلح
المجاز من مفهومه لدي اللغويين القدامي وقد كان ابن قتيبة تلميذ الجاحظ
يرفض رأيه ويتابع اللغويين المتقدمين وأهل الحديث والسنة ويرى (أن
القرآن في المصحف حقيقة لا مجاز) ^(٥)

والخلاف في حقيقته خلاف لفظي بعيد عن الحقيقة وقد كان ابن تيمية
يدرك (بثاقب نظره أن العلة تكمن في جهل المسلمين بترائهم ، والتجائهم

(١) ابن تيمية ، الفتاوى الحموية ص ٩٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ابن حزم — الفصل ٤ / ٢٠٢ .

(٤) ابن تيمية — الإيمان ، ص ٦٩ .

(٥) الفتاوى ، ج ١٢ / ٢٨٨ .

إلي ما هو بعيد عن الروح الإسلامية (^(١)) فأخذوا يجعلون ما ليس بمجاز مجازاً وهذا (يفهم ويوهم المعاني الفاسدة من نفي ما أثبتته الله لنفسه كالحب والرحمة ، فكان ذلك تمهيداً للملاحدة وأهل البدع أن يلحدوا في أسمائه وآياته) ^(٢) والقول الجامع في جميع هذا الباب : (أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ ، وما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث) ^(٣)

”موقف ابن تيمية من الجهمية والمعتزلة في باب المحبة“

وامتداداً للقول حول المجاز والحقيقة ، وما تفرع عن التأويل في الآيات فقد ظهرت فرق مختلفة متباينة النظر حول المحبة .

ولقد تعددت الأقوال في المحبة إلى ثلاثة :-

الأول : هو قول الجهمية وقد كان الجهم لا يصف الله سبحانه وتعالى بأنه شيء وحي ، وقال : لا أصفه بوصف يجوز إطلاقه علي الحوادث .

وبذلك نفي الرؤية لله سبحانه وتعالى يوم القيامة وزعم أن الله لا يحب ولا يُحِبُّ وقد نفي كل صفة وصف الله تعالى بها نفسه ، ولم يثبت منها شيئاً . لا الإرادية ولا غيرها ، فإذا قيل إن الله تعالى يحب الطاعة ويبغض المعصية كان ذلك عنده — أي الجهم — بمعنى الثواب والعقاب ، وكذلك محبة العبد لله هي محبة طاعته ، والتقرب إليه وليست محبته لذاته سبحانه ، فأنكروا بذلك محبة الذات الإلهية التي هي الغاية والمقصود من الطاعة وقد

(١) د/ مصطفى حلمي — أعمال القلوب ، ص ٨٩ .

(٢) الفتاوى ، ج ٢٠ / ٤٥٨ .

(٣) الفتوى الحموية للكبرى ، ص ١٠١ .

تابع فيه الجهم أستاذة (الجعد بن درهم) الذي قتله خالد بن عبد الله القسري "بواسط" يوم النحر وقد قام مسلم بن أحوز أمير خراسان بقتل الجهم كذلك .

ويقول ابن تيمية في هذا (وهذا جهل عظيم) ، فإن محبة المتقرب إلي المتقرب إليه تابع لمحبه وفرع عليه ، فمن لا يحب الشيء لا يمكن أن يحب التقرب إليه إذ التقرب وسيلة ، ومحبة الوسيلة تبع لمحبة المقصود ، فيمتنع أن تكون الوسيلة إلي الشيء المحبوب هي المحبوب دون المقصود بالوسيلة ، فمن لا يحب الله لا يحب طاعته وعبادته)

الثاني :

هو قول المعتزلة وكان امتداداً للقول الأول ، ولكنه لم ينكر الصفات الإرادية بل أثبتها ثم أرجع إليها سائر الصفات من الرضا والمحبة والسخط والولاية . وتكاد تتفق أقوالهم عن المحبة في نقاط ثلاث :

١- المحبة هي الإرادة . ٢- هي الطاعة .

٣- الرضا هو الإرادة .

والذي حدانا إلي هذا هو ما وجدناه في نصوص المعتزلة أنفسهم

فالقاضي عبد الجبار (ت ٤٥٠ هـ) لا يفرق بين المحبة والإرادة فيقول (ولا يصح أن يقال إن المحبة غير الإرادة)^(١) وكأنه يرى أن ما أراده الله فقد أحبه .

ويذهب الزمخشري (ت ٥٢٦ هـ) في تفسيره إلي أن محبة العباد لربهم تعني إرادتهم الطاعة فيقول (محبة العباد لله مجاز عن إرادة نفوسهم واختصاصه بالعبادة دون غيره وأنها طاعته ، وفعل ما يحبه ، وأن محبة الله

(١) القاضي عبد الجبار (ت ٤٥٠ هـ) ، المغني ٦ / ٥٤ ، تحقيق د/ أحمد فؤاد الأهواني ، مراجعة د/ إبراهيم مدكور وإشراف طه حسين - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .

هي إثابته علي طاعتهم (^(١)) ويقول النجري (ت ٨٧٧هـ) (الرضي والسخط ، والولاية ، والمحبة ، بمعنى الإرادة ، فإذا قيل رضى الله عن فلان أو والاه أو أحبه فمعناه أراد نفعه) (^(٢))

ولكن ما موقف ابن تيمية من ذلك ؟

أولاً : هل المحبة هي الإرادة ؟

لم يفرق المعتزلة بين معني اللفظين ولم يعلموا أن الاشتراك بينهما لفظي وحسب إذاً لأراحم هذا من نصرف الألفاظ عن معانيها الحقيقية ولعلموا أن المحبة وغيرها من الصفات إنما هي صفات كمال لا صفات نقص إذ المحبة أصل الإرادة والإرادة دائماً مستلزمة بالمحبة ، فالشيء لا يراد إلا (لأنه محبوب أو لأنه وسيلة إلي المحبوب ولو قدر عدم المحبة لامتعت الإرادة ، فإن المحبة لازمة الإرادة) (^(٣)) ويرى ابن تيمية أن المعتزلة (لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو لائق بالخلق) (^(٤)) فقصروا بذلك الصفة علي الخلق وقالوا تلحق المخلوقين والحق منزّه عن ذلك ، وهم بهذا القول قد شبهوا أسماء الحق بمفهوم أسماء الخلق ، ثم نفوا ذلك ، (فجمعوا بين التعطيل والتمثيل) (^(٥)) والحقيقة أن العبد لا يشترك مع الحق في صفة إلا في الاسم وإنه عندما نفوا المحبة عنه تعالي وأنه يُحِب ويُحَب قد

(١) الزمخشري : تفسير الكشاف ، ١ / ١٨٤ ، ٣٤٦ ، ط ١ ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٣٥٤هـ .

(٢) النجري — عبد الله بن محمد بن أبي القاسم (شرح القلائد في تصحيح العقائد ، ص ٦٩ ، مخطوط مصور — مكتبة — محمد بن إسماعيل المنصور بصنعاء) مكتبة خاصة (والمؤلف هو أحد أعلام الفكر الاعترالي باليمن وله العديد من المؤلفات في علم الكلام — راجع (مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن) لعبد الله محمد الحبشي — نشر مركز الدراسات اليمنية — صنعاء — بدون تاريخ .

(٣) ابن تيمية — منهاج السنة ، ج ٣ / ١٠٠ .

(٤) ابن تيمية — الفتوي الحموية للكبري ، ص ٣٢ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

أثبتوا له الإرادة وأنه مريد حقيقة ، وهي في حق العبد ميل إلي النافع أو الضار ، والحق منزّه عن ذلك ، أي أنهم بفعلهم هذا قد صرفوا (النص عن المعني الذي هو مقتضاه إلي معني آخر فلامهم نفس المعني الذي فروا منه فيما أثبتوه) (١) والمحبوب المراد قد يكون موجوداً بدون الإرادة وإرجاع المعتزلة المحبة إلي الإرادة هو إرجاع الأصل إلي الفرع ، ولعل هذا سبب في اضطرابهم في فهم الحكمة من الخلق وأن ذلك واقع تحت المراد المحبوب له .

ومن الواضح عند المعتزلة أنهم اعتمدوا في الاستدلال لعقائدهم علي القضايا العقلية ، وكان من آثار اعتمادهم علي العقل في معرفة حقائق الأشياء وإدراك العقائد أنهم كانوا يحكمون بحسن الأشياء وقبحها عقلاً ، والظاهر من (مجموع تفكيرهم وآرائهم ، ومناهجهم أنهم أخذوا من الفلسفة التي راجت سوقها في العصر العباسي ، ولهذا كان كل عالم من العلماء ينحو في تفكيره منحي فلسفياً لا يجد من بين الفرق من يأوي إليه إلا هؤلاء المعتزلة) (٢)

ثانياً : هل المحبة هي الطاعة ؟

لقد ترتب علي ما سبق جعلهم المحبة نوعاً من الإرادة والإرادة لا تعلق لها بالجائزات ، ولذا لا تتعلق بالذات الإلهية معللين ذلك بأنه لا توجد هناك نسبة بين القديم والمحدث توجب ذلك . فأولوا المحبة بأنها محبة التقرب والطاعة . والحقيقة أن محبة التقرب والطاعة ، فرع من محبة المحبوب ، والطاعة وسيلة لمحبهه ، (فلا يعقل أن تكون الوسيلة هي

(١) الفتاوى الكبرى ج ٣ / ٢٦ .

(٢) الإمام أبو زهرة (ابن تيمية) ص ١٥٤ .

المحبيب دون القصد بالوسيلة لأن هذا يجر إلى الدور والتسلسل ، فلا يستطيع المحب أن يصل إلى محبوبه (١)

وهم إذ جعلوا الحب هو الطاعة يكونون قد أدرجوها تحت (جنس محبة سائر المشتبهات) (٢)

ومما يدحض كون المحبة هي الطاعة . أن النبي ﷺ عندما نبه إلى اللذة التي يجنيها المؤمن في حديثه (ثلاث من كن فيه ، وجد بهن حلاوة الإيمان) (٣) قد أفصح عما يحصل في الفؤاد من ذوق الحلاوة الإيمانية وأن هذا الذوق لم يكن مترتباً على الطاعة نفسها ولكن مبدؤه كان المعرفة بالحق المحبوب لذاته فإن النفس يحركها الحب وشدة الطلب ، والحب حركتها الطبيعية ومن أحب شيئاً وجد فيه لذة ونشوة ، وكلما كانت الغاية أعظم كانت اللذة أعظم والله تعالى أكمل الكمالات لذا فإن الحب بذلك المنبعث عن المعرفة به تعالى يكون أشد من أي حب آخر وهو ما يبعثهم على الطاعة وبذا فإن مستقر المحبة القلب (فإذا خلا عن الحب مطلقاً تعطلت النفس عن حركتها ، وثقلت وكسلت وفارقها خفة النشاط ، ولهذا نجد الكسالي أكثر الناس همّاً وغمّاً وحزناً ليس لهم فرح ولا سرور ، بخلاف أرباب النشاط في عمل هم عالمون بحسن عواقبه ، وحلاوة غايته ، كان التذاهم بحبه ونشاطهم أقوى) (٤) والحب هو أصل الحركات والسكنات فإنه ما دام في القلب فهو يحركه بحركته الطبيعية وقد جاء رجل إلى الرسول ﷺ فسأله عن

(١) الفتاوى الكبرى ، ج ١٠ / ٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٦ / ٤٧٧ .

(٣) سبق تخريج الحديث .

(٤) ابن القيم - روضة المحبين ص ١٦٧ ، دار الوعي - حلب ، ١٣٩٧ هـ .

الساعة ^(١) — فقال النبي ﷺ : (وما أعددت لها) قال : (ما أعددت لها كبير عمل ، ولكني أعددت لها حب الله ورسوله ، فقال ﷺ : أنت مع من أحببت . وصدق ابن تيمية عندما قال (إن في الدنيا جنة لن يدخل جنة الآخرة من لم يدخلها) ويعني بذلك خلجات القلب المغتبط بالإيمان .

” المحبة والرضا والإرادة ”

لقد أخطأ المعتزلة حين سوا بين الرضا والإرادة ، وهذا ما حملهم علي القول بأنه تعالى يرضى القبائح ، لأنه في زعمهم — لو أراد القبائح لصح أن يحبها ويرضى بها ويختارها) ^(٢) ولذا لزمهم القول بأنه يقع في ملكة ما لا يريد يقول القاضي عبد الجبار (إن الرضا بالفعل هو الإرادة) ^(٣) ويقول (ولا يجوز أن يريد شيئاً من القبائح) ومعني هذا أن كفر الكافر عندهم لا مراد ولا مرضى وهذا تعطيل . أما عند أهل السنة فإنه مراد لا مرضى وهذا نجد ابن تيمية يأتي بالأدلة علي خطأ هذا الرأي الذي ادعته الجهمية والمعتزلة فيشرح حديثاً عن النبي ﷺ .

(عن جويرية أم المؤمنين — رضي الله عنها — أنه لما خرج رسول الله ﷺ من عندها ثم رجع فوجدها تسبح بحصى ، فقال لها : (ما زلت منذ اليوم ؟ فقالت نعم ، قال النبي ﷺ ، لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلتيهن منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله مداد كلماته)

ويرد ابن تيمية عليهم من خلال شرحه لهذا الحديث بأمرين :

(١) البخاري ج ١ ، ص ٢٧ رقم (٥٠) ومسلم ج ١ ، ص ٢٩ ، وصحيح ابن حبان — كتاب الإيمان ٤٧١ / ١ .

(٢) القاضي عبد الجبار (المغنى) تحقيق أحمد فؤاد الأهواني ج ٦ — ص ٢٣٧ .

(٣) السابق ٦ / ٢٣٧ .

أولاً : قوله ﷺ :- سبحانه الله عدد خلقه ، وقوله سبحانه الله رضا نفسه ، قد فرق بين الرضا والإرادة ، وأنهما متباينان ، وذلك لأن الخلق هو مراده (فلو كان رضاه هو إرادته لكان مراده موجوداً ، فإن مراده قد وجد قبل هذا الكلام فإنه ما شاء الله كان ، وهذا الكلام يقتضي أن رضى نفسه أعظم من ذلك ومن ذلك أنه جمع بين رضا نفسه ومداد كلماته ، فأثبت له الرضا والكلام ، والرضا مستلزم الإرادة ، وإن لم يكن هو عين الإرادة ، ففيه إثبات كلامه ورضاه الذي يتضمن محبته ومشيتته (١)

ثانياً : أن في هذا الحديث إثبات نفسه سبحانه وتعالى لقوله ﷺ (سبحانه الله رضا نفسه) وفي ذلك قال تعالى " تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ " (٢) وإذا تأملنا في حقيقة أقوال المنكرين لمحبة العبد لله نجدهم ينكرون الألوهية ، كما أن إنكارهم حب الحق تعالى لعباده يحمل إنكاراً للربوبية ، فصار هذا الإنكار كما يقول ابن تيمية مستلزماً لإنكار كونه رب العالمين ، ولكونه إله العالمين وهذا قول (أهل التعطيل والجحود) (٣) وقد اخطأ هؤلاء في تأويل قوله تعالى " الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ " (٤) فرأوا أن الأعمال القبيحة والأعمال الشريرة لا تدرج تحت هذا الخلق ، فقالوا إنها ليست من خلق الله ، لذا قالوا لا يقع في ملكه ما لا يريد متأولين الإرادة بالرضا وهذا خطأ كما بينت من قبل .

(١) ابن تيمية - الاستقامة ١/ ٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) سورة المائدة (١١٦)

(٣) ابن تيمية - الفتاوى الكبرى ١٠ / ٧٣ .

(٤) سورة السجدة (٧)

وفصل ابن تيمية في رده عليهم في غير ما موضع من كتبه بأن سبب خطأهم عدم التفريق بين إرادتين الإرادة الدينية الشرعية والإرادة الكونية ، فإن الإرادة الشرعية متعلقة بألوهيته تعالى والتحقيق () بالأمر والنهي والمحبة والخوف والرجاء يكون عن كشف علم الإلهية (١)

والدلائل من الكتاب كثيرة منه قوله تعالى " يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ " (٢) وقوله تعالى " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ " (٣) وقوله تعالى " يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَنَّ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا " (٤) وهي ملازمة للأمر كما أنها لكي يقع الفعل المراد الرضا فلا بد من تعلقها بالإرادة الكونية .

ثانياً : الإرادة الكونية

وفي قوله تعالى " وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ " (٥) إشارة إلى ما اقتضته الربوبية من التوكل والتفويض والتسليم ، لأن الرب — سبحانه وتعالى — هو المالك وفيه أيضاً معنى الربوبية والإصلاح وهو علم التدبير الساري في الأكوان ، كما قال عز وجل : " إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " (٦)

(١) ابن تيمية — توحيد الألوهية ص ٨٩ ، طبعة ١٩٩٢ م .

(٢) سورة البقرة (١٨٥)

(٣) سورة الفاتحة (٥)

(٤) سورة النساء (٢٦ : ٢٨)

(٥) سورة الفاتحة (٥)

(٦) سورة النحل (٤٠)

يقول ابن تيمية (فإذا تحقق العبد لهذا المشهد ، ووفقه تعالى لذلك ، بحيث لا يحجبه هذا المشهد عن المشهد الأول فهو الفقيه في عبوديته) (١)

وابن تيمية يبين أن الأهواء قد تغلب المرء في معرفة الجمع بين المشهدين فيحكم المرء مراده وفكره وهواه علي غير ما اقتضته الإرادة الإلهية فيبين أن (من جمع بين المشهدين : الأمر الشرعي ، ومشهد الأمر الكوني الإرادي ، وقد زلت في هذا المشهد أقدام كثيرة من السالكين ، لقلّة معرفتهم بما بعث الله به المرسلين وذلك لأنهم عبدوا الله علي مرادهم منه ، ففقدوا بمرادهم عن مراد الحق — عز وجل — منهم ، لأن الحق يغني بمراده ومحبوه ، ولو عبدوا الله علي مراده منهم لم ينالهم شيء من ذلك) (٢) والتفريق بين الإرادتين يعلم منه فساد دعواهم فإن الإرادة الكونية يشترك فيها كل أحد من مؤمن وكافر وأما الإرادة الشرعية فهي الفاصل بينهما ، وبها تقاس قوة الإيمان لدي من آمنوا وهي التي يرضاها الله ويحبها بخلاف الأخرى . والله تعالى لم يأمر الخلق بكل مقضي حسن وقبيح ، خير أو شر ، وإنما أمرنا أن نأتي أمره الديني الشرعي قال تعالى " وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ " (٣) قال ابن تيمية (فلو كان يرضى كل شيء لما كان له خصيصه .) (٤)

(١) ابن تيمية — توحيد الألوهية ، ص ٩٠ ، طبعة ١٩٩٢ م .

(٢) ابن تيمية ، المسابiq ، ص ٩٠ .

(٣) سورة التوبة (٥٩)

(٤) ابن تيمية — مجموعة الرسائل الكبرى ، ٨٠ / ٢ .

” المحبة بين ابن تيمية والأشاعرة ”

لقد جاء الإمام الأشعري (ت ٣٢٤ هـ) الذي استخدم المنهج الكلامي في الدفاع عن العقائد السلفية في مواجهة المعتزلة وأعلن ألا مفر من سلوك الطريق الصحيح : طريق السلف وهذا ما دفع ابن تيمية إلي التلطف به والرقّة معه عند النقد . وإنما ذلك (بسبب أقوال الأشعري المؤيدة لمذهب أهل الحديث والسنة) (١) وقد كان ابن تيمية يرى ضرورة أن يعرف لهذا الإمام قدره وحقه عملاً بقول الله تعالى (قد جعل الله لكل شيء قدراً) (٦٥ : ٣) وذلك لأن (قيامه بنصرة مذهب أهل السنة في وجه أهل البدع وقهره للمخالفين يضعه في مرتبة المجاهدين) (٢)

مذهب الأشعري في الإرادة والمحبة

لقد تطور الأشعري فكرياً وسجل ذلك في كتبه ، لذا فإن له مذهبين في المحبة . يتضح الأول من خلال ما أورده في كتابه الموجز وهو ما قاله ابن تيمية وما قال به تلامذته .

المذهب الأول :

وفي هذا المذهب نجده يسير علي الأصل الجهمي أي أنه يسوي بين المحبة والإرادة فيقول المحبة لله بمحبة طاعته ومحبة الله لعبده بإثابته لهم علي طاعتهم وهذا ما ذكره عنه أبو المعالي الجويني (ت ٤٧٨ هـ) وقد ذكر أن الأشعري هو أول من سوى بين المحبة والإرادة وينقل مثل هذا البيهقي في كتابه الأسماء والصفات . وقد نقل ابن تيمية من الموجز للأشعري نصاً يبين فيه أن الأشعري يقول (بأن الله يحب المعاصي

(١) د/ مصطفى حلمي - ابن تيمية والتصوف ، ص ١٨ .

(٢) ابن تيمية - نقض المنطق ، ص ١١ .

ويرضاها كما أرادها ناقلاً ذلك — أي ابن تيمية — عن جماعة يشك في بعضهم^(١).

المذهب الثاني :

وقد عبّر الأشعري عن مذهبه هذا في أواخر كتبه فقد حرص علي إلقاء الضوء علي المذهب الصحيح لديه، فنلاحظ فيها التفريق الواضح بين الأمر والإرادة والمشية والمحبة ، وهذا ما يبدو في كتابه (اللمع) بوضوح فقد بين فيه أن وقوع الأفعال وإيجادها دون الأمر بها ليس ضعفاً وإنما الضعف يكون إذا وجدت وهو لا يريد ما فيقول (فكنالك كون لم يأمر به من غيره لا يوجب ضعفاً ، وفي كون ما لم يرد من غيره ما يدل علي الضعف ، وأيضاً فإن ما لم يأمر به ونهي عنه أراد وقوعه ، كذلك لم يلحقه الضعف)^(٢)

فالأمر هنا هو ما أحبه الله وأراد وقوعه ، والفعل المبغوض هو ما نهى الله عنه ولكنه أراد وقوعه ، وهذا عين ما قاله ابن تيمية وأوضحه في كتبه^(٣).

(١) ابن تيمية — شذرات البلاتين ، ١ / ٢٤٤ ، تحقيق / محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٧٥ / ١٩٥٦ .

(٢) الأشعري — (أبو الحسن علي بن إسماعيل) (اللمع في الرد علي أهل الزيغ والبدع — تحقيق الأب مكارثي — ص ٥٩ ، طبعة بيروت ، ١٩٥٣ م

(٣) انظر في ذلك ابن تيمية — منهاج السنة ٣ / ١٠٢ .